الجزء الثانى

شوقى فى الميزان

٧ — (أثر الجزء الأول) [١]

(أ) عرضنا «شوقى» فى الميزان لأول مرة ، فارتج به ارتجاجاً عنيفاً ، وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا ، وماهو إلى أن حط به ثم شال حتى تمنى

شوقى ينشد فخرا آخر

أن يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ، ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبونى لست بالشاعر ، أليس لى فخر آخر أدل به ؟؟» نقول : أجل ، ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول .

(ب) أما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة أجزاء. فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى أوانه: أسرعوا إلى اقتنائه حتى

اختلاف مواقف القراء

نفدت نسخه فى أسبوع أو أقل ، ونادراً ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد ، وتوالى الطلب له فى المدينة والأقاليم ، فلم نر بدا من التعويل على إعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها إلى الأدب ، فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المتزنة ، والفطر المستقيمة ، والاطلاع المجدى ، وموافقتهم عليه مرضية ؛ ورأيهم فيه جميل ، ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة ، وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون. وطائفة أخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع وجدناها إلى الموافقة المشفوعة بالدهش أميل منها إلى المنافرة والعنت . وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ، ويتهم ناقدته بالانحراف ، فهو يتلمس المعاذير ، ويدرب لسانه على التغيير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ، ولاسيما بعد هدأة الدهشة ، وتطامن المفاجأة ، لأن نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة . ويقال على الجملة : إن أثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر

---

(١) هذا العنوان وكل عنوان محصور مثله بين قوسين حاصرين هكذا ( ) زيادة منا على الأصل .

عند اليأس منه نبذه . وأما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ، ونعني فريق القراء — وبالحرى المتحدثين — الذين لم نوجه إليهم خطابا ، وهما فريق المعجبين على الإشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والغرارة ، ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ، ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التي فتن بها ، ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة في نقد رثاء شوقي لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التي أقام لها الأزهار والرياحين ، وسؤال عما كان من القطن بأصنافه في تلك المناحة ، فظن — صان الله لشوقي إعجابه — أننا إنما أنكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره (١) ، فقال متعجباً : « وهل كان القطن (طالعاً) وقتئذ فيذكره في القصيدة ؟ »

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقي في (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية (٢)) فما رأينا أحر من سخطهم ، ولا أكثر تصنعاً لأسبابه ، وتمحلا لعلله ، وهذه آخر إشارة نلمح إليهم بها .

(ح) ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه إلى الحق متى وضح له وجهه : أول الانتقادين وأشبههما بالحق أننا اخترنا أوهن قصائد شوقي وأكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا ، فإننا إنما راعينا الحداثة فيما اخترنا من قصائده ، وهي لا تقل — في اعتقادنا واعتقاده — عن أجود شعره صياغة ومعنى ، ولكن الحقيقة — كما قلنا في الجزء الأول — هي أن قراء اليوم غيرهم بالأمس ، فليس يرضيهم ما كان فوق الرضا قبل عشرين سنة (٣) . ونحن نذكر أصحاب هذا القول بأننا إنما كنا نصوب الانتقاد إلى شاعرية شوقي وذوقه ، وروح قصائده ومنهج أدبه ، متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، وإذا كان الطعن في الشاعرية ، والعاهة في الذوق والروح ، والاعوجاج في المنهج — فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

رد على نقدين

---

(١) انظر الفقرة (ب) ص ٤٧

(٢) انظر الفقرة (ز) ص ٣٠ ، والفقرة (ا) ص ٦٦ وذيل ص ١٣٧ « من ساعات بين الكتب » .

(٣) انظر الفقرة (ا ، ب ، ج) ٣٢ — ٣٤

أما ثانى الانتقادين فهو أننا أغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير. ولهؤلاء نقول : إننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقده بالبرهان وحده ، ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة، وما أحوج البرهان فى هذه إلى الشدة وما أقل ما يغنى فيها اللين والهوادة .

(ى) ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين. فياعجبا !! كأننا نحن نهينه إذا قابلنا أدعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لايختلف عنها ، وهو لايهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى أنفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع ، وهذا ما أعلناه فى توطئة الجزء الأول (١) ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية (٢). فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا، ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء، فإنه لا يعرف كيف يغضب

الكرامة الأدبية

وكأننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر، ولكننا نؤكد لهم أنها حقيقة تحس وتلمس وإن كانت لا تؤكل ،وأنها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والإجارة والديون!! وسنحدثهم بخبر قضية جرت إبان ظهور الجزء الأول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجدير بشرف الأدب ،وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

---

(١) انظر الفقرة (ل) ص ٣٢

(٢) لم يظهر شىء من الأجزاء التالية كما بينا فى (الهامش) ص ٢٥ ولكن يمكن أن يعد ما كتب الأستاذ العقاد بعد ذلك فى نقد شوقى تكملة لحملته فى الديوان ، فقد نشر ثمانى مقالات فى « البلاغ الأسبوعى » بعنوان « الشعر فى مصر » يضمها الجزء الأول من « ساعات بين الكتب » ص ١٠٥ — ١٤٢ » ومقالة أخرى فى العدد الخاص بشوقى من « السياسة الأسبوعية » حين كرم « أمير الشعراء » ومقالة عاشرة فى « البلاغ » ليوم تكريمه ،وهذه المقالات العشر نشرت سنه ١٩٢٧ ، ثم أعاد الأستاذ الحملة بأربع مقالات ، جمعها كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» ص ١٥ — ١٨٨ المطبوع سنة ١٩٣٧ ، وله مقالات أو نبذ من مقالات نشرت فى « الرسالة » وغيرها من المجلات ، وكلها تدل على ثبات رأيه ،فيه وفيما رد على ما يزعم الزاعمون من أنه غير رأيه بعد موت شوقى . انظر المقدمة أيضا).

كان ولا يزال فى حاضر الزمان لا فى سالف العصر والأوان، وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان — إنسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص، ولهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « إذا » يحض بها الهمم، ويذكى فى النفوس الضرم، شاءت « شركة جناتوزان » أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التى تجهزها لمداواة الأعصاب، فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها. فاذا كان من أمر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذى قلنا إنه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها إلى محاكم لندن، وزعموا أن وكيله — ويدعى المستر هيوز — وقف فطلب إلى القضاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال، وقال فيما قال: « إنه لمن أصعب الأشياء أن يتخيل الإنسان أمرا أشد إيذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بإدماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم. إنها لإهانة لا نقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الأدبية »

قالوا: فلما نطق القاضى بحكمه عذر الشاعر، وقال: « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة — وعندى أن هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضا للإهانة التى ألحقتها بالشاعر (١)

فهذه أسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الأدبية، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الأساطير فى غير قصور ألف ليلة حريون ألا يقفوا بها عند حد التفكه.

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم: إنه أشد ما يتخيل إيذاء لنفس المؤلف، ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة، فما بال شاعرهم ألف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كان دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب، إن صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

---

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ (عن الأصل)

ذلك لأن أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية وأريحية الفنون أقل معنى ، ولا يفهمون من جمال الشعر إلا أنه « أسرى مروءة الدنى : وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لولا القضاء — وفيه مقنع لهم (١) — لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة إلا أعجوبة مبهمة ولغزا مغلقاً . لأن هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه شوقى مختارا ، وتعمد أن يكون إعلاناً لسلعة معروضة ! ! ألم ينظم أبياتاً يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بلى ، فقد قال أدامه الله للذكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة ... تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها ... حسناً ، وفكتها من التقييد
تهدى لحسن الخط كل مقصر ... وتمد فى الإحسان كل مجيد
أعلى لدى الكتاب إن ظفروا بها ... من ريشة الألماس عند الغيد
وألذ فوق الطرس إن خطرت به ... من ريشة « الليثى » فوق العود
وتكاد تحيى مؤنساً بصريرها ... وتقول : أيام ابن مقلة عودى
لولم يكن فى الأمر إلا أنها ... مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات أو فى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة — شعر لا يتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الإعلانات التجارية ، وعبقرية دارجة أبانت أن أخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وإن من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الألماس » لقريب نسب من ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر ياعنب » والذى يدلل على ريشة عربية بأنها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » إنما يرشف من البحر الذى تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة فى العالم كله » . و « لو لم يكن فى الأمر إلا أنها مصرية » شبيه بكل ما ينسب إلى مصر والمصريين على عناوين الذكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضون الريشة ويمدحونها بالجدة والسلاسة : إن لها صريراً يكاد يحيى الأموات ! !

---

(١) من المؤسف أننا لانزال فينا نزعة « التقديس » الوبيلة « للرسمية » أو « الأميرية » فإذا حكمت جهة رسمية حكما آمنا بعدله ولو كان خاطئا ، وإلا نوقعنا أو برأنا . وكم مجرم برأنا لأنه لم يدن « رسميا » وكم شريف إتهمنا ، لأنه أدين ظلما من جهة رسمية . وكان الواجب أن نحكم عقولنا لنعرف الحق من الباطل ، ونميز الطيب من الخبيث .

(هـ) وبعد فإن المرء ليزدرى بالعقل الإنسانى نفسه إذا قيل: إن هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الإمارة الشوقية من ذرى مزاياه وحملة أدباء فوق الناس وأدباء تحتهم أمانته فى الأرض. فالأدباء فى الأمم هم عنوان حياتيها الروحية والفكرية، ومعيار ما تحسه من مفاخر الحياة وقوى الطبيعة ومعانى الوجود. وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا، ويوحيه كمالا وفضلا، وهم — إذا ذكرت الفصاحة فى الأمم — صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة، فقل لى — رعاك الله — أى هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الأمة الحية بأنه صورة ما فى نفوسها من زينة وجمال، ومظهر ما فى رءوسها من فكر وخيال، وترجمان ما يجول بوجدانها وتعبر به صدورها من قسط فى الوجود وتراث مقسم بين أبناء آدم. وإن المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمار الآداب الغربية، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مذاهبها ومتجهاتها، وتجاوب أصدائها وأصواتها — أبواب للكتابة منوعة، ومهايع متسعة، وفنون مبتدعة، ونحل ومذاهب، ومدارس ومشارب. والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر فى كل شية من شياتها، محسوسة فى كل خطرة من خطراتها، متكررة متضاعفة، شاكة موقنة، جادة ساخرة ناقمة راضية، شهوانية متنطسة، فياضة غير بكية موصولة بيننا بيعها مروية. والنفس تحس من إحدى نواحى ذلك العالم الرحيب مالا تحسه من سواها فكأنها نفوس متفرقة لا نفس واحدة جاثمة. وكذلك عالمهم.

ثم تلتفت إلى الأدب الذى يدعيه أولئك الأميون العارفون بالكتابة، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة، العامة المتطفلون على موائد الخاصة — فترى عجبا: ترى هذا عاكفا على رقيته ولمعه، وذاك مدبرا إلى ربربه وسربه، ومادحا وهاجيا، ومحسوبا على آل فلان، ومتمسحا بآل عمران. نفوس ضارية، وعقول خاوية، وأخيلة فى التراب ثاوية، أو كأنما هى الأثقال إلى القرار هاوية. فصدق إحدى اثنتين: إما أن أدبا تسمعه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسمى معارج الإنسانية، وإما أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفون حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع، وامتياز المدارك، ووفور الشعور.

وإن من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها. وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش

يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه ، أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات أرزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟ ووارحمتاه « للكلتور (١) المصرى » يساق دعائمه لتمثيل الروايات وإنشاد الأشعار بأيسر مما يساق « المولوية » (٢) لتشييع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدنية الحديثة : إن أقلام أدبائها إحدى الحواجز التى تصونها أن ترتد إلى العصور المظلمة ، وإنها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة ، أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وإنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ، ويحسب حسابه كل طاغية — فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟ ؟ إن العصا فى يد الأكار لأنفع لمدنية مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا إجحاف بهم ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب ، بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه ، وأن ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

(و) وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علية القوم يثنون عليه وهزلها الخطر فيغترون بتشييعهم له ويروعهم إعجابه به ، ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطراً حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة إعجاب هؤلاء العلية إذا أعجبوا ، وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا ، وإنها إن هى إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة .

لجنة الأغانى

شمرت اللجنة عن ساعديها ، وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى إذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فأخرجت نشيد شوقى وهى

---

(١) لكل أمة ثقافتها التى تعبر عن حياة روحها وفكرها وأخلاقها وعقائدها وحضارتها وسائر مقومات شخصيتها ، وتعد ترجمة لكل ما يجيش به ضميرها من أسرار الكون وقوى الطبيعة ودوافع الحياة ، وصورة جامعة لعبقريتها بكل مقدساتها وقيمها ومثلها فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وهذا هو المراد بالكلتور ، وهو مناط تمجيد الأمة ودستور حياتها العقلية الذى تحاول أن تطبع به كل أبنائها وتؤدبهم به ، وتدربهم عليه .

(٢) طريقة من الطرق التى تنسب إلى الصوفية فى القاهرة يؤجر « دراويشها » المتبطلون لتشييع الجنائز وتلاوة الأذكار والقصائد النبوية فيها ، وكان خروجهم على هذا النحو أمام جنائز القادرين آية الوجاهة والثراء . وقد انقرضت هذه العادة منذ عشر سنوات تقريبا . والمولوية نسبة إلى « المولى » والمقصود به جلال الدين الرومى الشاعر الصوفى الكبير ، وهم ينتسبون إليه وهو منهم براء .

تقسم أنها لا تعرفه ، وجعلت تلوح به للملأ كى يشاركها فى الابتهاج به . فيا للمهارة !! ولكنها — لسوء حظ شوقى — كانت تنقصها خفة اليد !

ولا حاجة بنا إلى الاستنتاج ولا إلى العود لما حدث فى الجلسة مما أظهر اطلاع الأعضاء على النشيد قبل التئامها ، اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول . فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين — وهم أعضاؤها الإخصائيون — اختارت نشيد شوقى وأعلنت أسباب اختيارها له فى فى منشورها ، وهى أنها « انتهت فى مناقشتها إلى أنه أكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قومى » . وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بأنغام الأناشيد القومية ، ثم إنهم يذكرون أن فريقاً من أعضاء نادى الموسيقى من الذين كانوا فى لجنة الأغانى أذاعوا بعقب ذلك فى الصحف أن الأستاذ إنما يتكلم برأيه . ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة ، مجدين فى إبعاد كل مظنة فى صلاحية « النشيد الوطنى المختار » للتلحين فما جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة ، وهذا الإصرار الصادر عن روية ؟

لم يصفق جمهور الناس مع اللجنة ، وقد بدأت هى أمامهم ، وأقبلوا يسألونها وهى محتدمة تصفيقا . ما هو الذى تصفقين له ؟ ثم لم يعد يكفى فى هذه الأمور أن يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه (١) . وكثر اللغط بتحيزها ، واجترأ الموسيقيون على الإفضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما ، وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه إنما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم . . . كأنما النشيد مشى بقدميه إلى ديوان لجنة الأغانى ! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الأمة عليها حكما قاضيا على معرفتها وإنصافها وإخلاصها . فبادر أعضاؤها الإخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !

---

(١) من المؤسف أن الجهات الرسمية وغيرها تسير على هذه الوتيرة حتى الآن ، فتكل الإشراف والحكم على الفنون والآداب ونحوها إلى ذوى الوجاهة بالمناصب والألقاب وإن كانوا دون العامة فيما يطلب منهم الإشراف والحكم عليه ، ولا يزال أولئك الوجهاء يستأثرون بالصدارة فى كل مقام ولو لم يكونوا من أهله ، وربما كان جهلهم به من مسوغات اثمانهم عليه لأسباب قد يكون أقلها شناعة أن من أقاموا هؤلاء الوجهاء هذا المقام أشنع جهلا بخطره وأقل منهم غيرة على كرامته . وبعض المؤلفين لا يستحيون أن يستجدوا تقريظات هؤلاء الجهلة ، وينشروها فى مؤلفاتهم تزكية لها .

وقيل بلسان رئيسها : إنهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . إذن فماذا اشترطتم؟ أتراكم كنتم تقدمون للأمة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات ؟ وأين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟

كذلك تهافت حكم لجنة الأغانى بيدها ، وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء . ونعنى به طلسم الأسماء الخلابة ووهم الألقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يوجى منها صلاح للأغانى ولا لسواها . ولكنها إذا كانت تخرج من العدم لتئوب إليه بعد أن تكون قد أبطلت وهم العامة فى أمثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير .

(ز) على أنها مهمة نفسها على هذه اللجنة ، فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيراً فلو لم تقيضها الحوادث لإظهار قيمة التحبيذ والإطراء من ذوى الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم فى شهر ديسمبر الماضى ، وهذه حكاية نرويها ولا نعقب عليها .

زفة وزفة

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهر : « قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد إلقاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القصرى فى الحفلة التى أقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون بدار الجمعية الإسلامية بقصر النزهة بشبرا ، فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان ، فازدحم بهم المكان ، ثم أقبل نائب الأمير : محمد بك جلبى باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام ، وكذلك فرق الكشافة للكشاف الأعظم . ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم . فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافة ، فمقطوعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية . ثم وقف نائب الأمير ، واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة ، وألقاها بين الإعجاب والتصفيق الشديد ، وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية أثرية ثمينة ، وتبرع حضرة العربى الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية . ثم وقف حضرة الشاعر العربى عمر بك السعدى وألقى قصيدة عامرة أثنى فيها على سمو الأمير لتعضيده العلم ، وامتدح بها الشاعر ، ثم نزع من إصبعه خاتما

من الماس . ووضعه فى إصبع الأستاذ القصرى . وقدم لسيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتماً من الماس . وأهداه حضرة عبد الفتاح افندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل . وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية : أنشده بعض التلاميذ والتلميذات . ثم بالقرآن الكريم . وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر»

انتهى ما نقلناه من المقطم فليتأمله القارىء . وليتصور اسم شوقى مجرداً من مثل هذه الطنطنة . بل ليتصوره محلى بها . وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر . أو شهادة تقدر ...

(ع) وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ، ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى إنصافها ، وفى الإخلاص للفن الذى تخدمه ، وتنشيط المواهب الفتية التى تنهض إليه ، لولا أنها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات ، أكاديمية كونكور ، يحكم فى كل سنة بجائزة قدرها اثنا عشر ألف فرنك للسابق من الأدباء فى باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتى اسمه أرنست بيروشون لرواية قصصية ألفها . أفيدرى القارىء من هذا أرنست بيروسون ؟؟

درس نافع من لجنة فرنسية

نقلت البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى (١) يسأل عن شأنه ، فإذا المسئول والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلواً من كل إشارة إليه أو إلى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى إحدى صحفه هذه ترجمته : « خبر روايات العام يؤلفها ابن فلاح يربح جائزة الأكاديمية الفرنسية » (٢) فتصفحت المجلة فإذا به صاحبنا بيروشون . وإذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس «وكان

---

(١) كان الأستاذ العقاد يحرر حينئذ (١٩٢٠ — ٢١) بجريدة الأهرام

(٢) جريدة الديلى كرونيكل — عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ . (عن الأصل)

بيروشون — وهو فى الخامسة والثلاثين — مجهولا إلى يوم أمس جهلا تاماً ، وإن كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص ... ولم يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه ، إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا ، فأعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الأدباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ، ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر »

فياقوم ، إذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى أحكامها هذا العدل ، وتحيى كل ملكة صالحة للحياة ، وهم لا يأنفون بها مغمضين ، ولا يسلسون لها خاضعين ، فكيف لو أنها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لاتحسن غير المجاملة ولا تحسن أن تجامل إلا بأن ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والإقفار ؟ إن فى ذلك لموعظة .

(ط) وخلاصة القول أننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم إلى فريقين : فأما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يرجع إلى شعره ، فقد أسخطناهم ولا نسأل الله أن يخفف سخطهم ، وأما الذين يرجعون إلى الأسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة ، وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى ، وإننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

خلاصة الموقف

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : إن رأى الأولين يمثله كتاب ورد إلينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : «خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه » وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم . ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقيناه به أديب مشهور (١) ، فقال : « إيه يافلان ، إليك بيتاً يسير مسير الأمثال :

شوقى تولاه عباس فأظهره واليوم يحمله فى الناس عباس» (٢)

وجوابنا له : بل إنه عصر يحمل عصرا ، ولاغية وهم تخفتها صيحة حق ، وإنا على الحق صامدون .

٨ — رثاء مصطفى كامل

(١) قال قائل من سماسرة شوقى «ماترى فى رثائه لمصطفى كامل؟ أتنقده؟» قلت «وماذا

---

(١) هو حافظ إبراهيم رحمه الله ؛ وكان آية فى سماحة النفس ولين الجانب ، وكان شوقى يكيد له ويهون من قدره ، ولكن حافظا أسرف فى مجاملته وتقديره خوفا من أن يتهم بالحسد له (انظر المقدمة)

(٢) عباس فى الشطر الأول هو « الخديو عباس حلمى الثانى » وعباس فى الشطر الثانى هو « الأستاذ عباس العقاد »

عساى أن أنتقد إن لم أنتقد الهراء والزيف والشتات ؟ » قال : إن تهافت معجزة شوقى القصيدة آيته . » قلت « لقد هديتنى هداك الله ، فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين ، وما حسبتها إلا زلة أسقطته فيها (مغالبة الشجون لخاطره)، أو داهية خانه فيها إمكانه الذى مافتى يخونه ، كما قال منها :

« ماذا دهانى يوم بنت فعقنى فيك القريض . وخاننى إمكانى »

وما دهاه إلا العجز والفهاهة والحرج . دهته أولا ، فأجفل وحسر ، واستعصى عليه النظم . فصنعها فى أربعين يوما ، ثم زاد كثيراً من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانياً ، فجرى على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته ، فبآيته فلتدحض رسالته ، وفى معقله الحصين فلتكشف وهنه وتفضح مطاعنه ، وإنها لآية ومعجزة والحق يقال ، ومعقل أى معقل ، ولكنها آية السيمياء ، ومعجزة الشعوذة ، ومعقل الرمل ، بل أخوى من ذلك وأضعف ، وأضأل فى الضئولة وأسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده ، فإنه — علم الله — لم يزعج لهم بديهة ، وإن كان يزعج بديهته فى كل صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وإن كان خاطره منه فى وصب وشقاء .

لكم دينكم ولى دينى

(ب) ولقد فات أصحابنا سماسرة شوقى أن خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الإجادة وخطوات السبق فنتقارب كلما أجاد شاعرهم فى رأيهم ، أو خيب آمالهم وأخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ، ثم على أدائه وطبيعته ، فربما كانت أرفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدنا ، وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب ، وكالأعجمى كلما أمعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الأعراب ، وهذا هو الواقع فيما أخذناه ونأخذه على شعر شوقى ، وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينا بعض المفتونين يحلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى — لو يفقه — من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله ، والشواهد التى يبحث عنها لإبراز مآخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها ، حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الاول فيها

عيوبه الأربعة

(ح) فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى وأضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها إلى الظهور وأجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة . وهى بالإيجاز : التفكك والإحالة والتقليد والولوع

بالأعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هي التي صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الإنسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود — من الزنجي عن المدنية . ومن صور الأبسطة والسجاجيد — كما يقول ماكولي — عن نفائس الصور الفنية . ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد إلا مزوياً أو دقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر ما لا يمنع أن يلمح لمرواء معجب يستهوي البسطاء ، بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيفة فإنها في الغالب أجمل من كريم الحلى والجواهر . ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية .

١ — التفكك

الوحدة الفنية

(٤) فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة ، إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشابه في الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز إذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول إن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما (١) يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصور بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل

---

(١) قال الحاتمي وهو من علماء القرن الهجري الثالث — في وحدة القصيدة : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب — غادر الجسم ذا عاهة تتجون محاسنه ، وتعفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين — يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدروها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها — كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء ، وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ؛ وهو مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه . . . » (زهر الآداب ٣ / ١٦) وقد أشار إليه الأستاذ العقاد في كتابه « ابن الرومي » ص ٤٦ فانظر بقية الرأي في أحد الكتابين ، ولاحظ الأستاذ أن ابن الرومي « جعل القصيدة كلا واحدا لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه ، فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين ، وتنحصر فيها الأغراض ، ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » ص ٣١٦

ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين . أو القدم عن الكف ، أو القلب عن المعدة . أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين : فإنك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأفداره فى تنسيق عقودهم وحليهم ، ولا ينظمونه جزافا إلا حيث تنزل بهم عماية الوحشية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد ، أو شعور كامل الحياة ، بل هو كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض ، أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل (١) الشىء فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه ، فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب ، صالحة لأن تحل فى أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا ارتقيت إلى النبات ألفيت الورق شكلا خلاف شكل الجذوع ، وللألياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى أجناس الناس كما تتمشى فى أنواع المخلوقات (٢) ومصداق ذلك ما نشاهد من تقارب الأقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر ، وهى حقيقة فطنت إليها قبائل البدو بالبداهة ، ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجين قبيلة منحوسة حمص (٣) اللحى متشابهو الأوزان

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة : تراها تتفاوت أقداراً وملاحم وبدوات وأطوارا ، حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته ، وفى مواهب الذهن ونزعته . ونقترب مما نحن بصدده فنقول إنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب ألفيت تشابها فى الأسلوب والموضوع والمشرب ،

(١) استفل : سفل (٢) انظر تفصيل ذلك وشواهده العلمية فى الفصول الخمسة الأولى من كتاب « أصل الأنواع » للعلامة دارون صاحب مذهب التطور ، وقد توسع فيه مواطنه الكبير الفيلسوف سبنسر وطبقه على كل الموجودات والمعارف والنظم فى كتبه ورسائله ، وفسر التطور بأنه الانتقال من حالة التجانس إلى حالة التنافر .

(٣) حمص : جمع أحمص وهو قليل شعر الرأس

وتماثلا فى روح الشعر وصياغته، فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها، لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات، والعناوين تلصق بالموضوعات، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائما بنفسه لا عضواً متصلا بسائر أعضائها، فيقولون: أفخر بيت، وأغزل بيت، وأشجع بيت، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد، كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها، وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة. وتقطع النفس فيها، وقصر الفكرة، وجفاف السليقة. فكأنما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات (١) النور متقطعة، لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب، وينير لك كل شعبة وزاوية، أو كأنما هى ميدان قتال: فيه ألف عين، وألف ذراع، وألف جمجمة، ولكن ليس فيه بنية واحدة حية. ولقد كان خيراً من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة. وإذا كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل، لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله، أو وسطه فى قمته، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر إليه عن هندسته وسكانه ومزاياه.

(هـ) وهذه كومة الرمل التى يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل. نسأل من يشاء أن يضعها على أى وضع قهل يراها تعود إلا كومة رمل كما كانت؟ وهل فيها من البناء إلا أحقاف خلت من هندسة تختل، ومن مزايا تتنسخ، ومن بناء ينقض، ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها. وتقريراً لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها، ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول. ليمر أها القارىء المرتاب، ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها.

ترتيب القصيدة الأصيل

ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها إلا أنها — كما نرجو — لا تضيع عبثاً.

قال شوقى أصلحه الله:

١ المشرقان عليك يبتحبان ... قاصيهما فى مأتم والدانى
٢ يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... فى الله من خلد ومن رضوان
٣ لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... فى الزائرين وروع الحرمان
٤ الكعبة الكبرى حيال رباهما ... منكوسة الأعلام والقضبان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة ... فى الله والمختار والسلطان

(١) وبصات: لمعات ووميضات

٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا ... فى المحفلين بصوتك الرنان
٧ ايرى الأواخر يومذاك ويسمعوا ... ما غاب عن قس وعن سحبان
٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ... ماذا لقيت من الوجود الفانى؟
٩ أبكى صباك ولا أعاتب من جنى ... هـذا عليه ، كرامة للجانى
١٠ يتساءلون أبالسلال قضيت أم ... بالقلب أم هل مت بالسرطان؟
١١ الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والإقدام والعرفان
١٢ إن كان للأخلاق ركن قائم ... فى هذه الدنيا فأنت البانى
١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى ... هل فيه آمال لنا وأمانى
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ... ولرب حى ميت الوجدان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ... ومضلل يجرى بغير عنان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين ... عليا المناصب لم تنح لجبان
١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين ولا إيمان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جعلت لها الأخلاق كالعنوان
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة ... قصر يريك تقاصر الأقران
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له : ... إن الحياة دقائق وثوانى
٢١ فارفع لنفسك بعدموتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثانى
٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شئونها ... ما شاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع ... وهى المضيق لمؤثر السلوان
٢٤ الناس غاد فى الشقاء ، ورائح ... يشقى له الرحماء وهو الهانى
٢٥ ومنعم لم يلق إلا لذة ... فى طيها شجن من الأشجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ يا طاهر الغدوات والروحات والـ ... ـخطرات والأسرار والإعلان
٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا ... غاز بغير مهند وسنان؟
٢٩ يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران
٣٠ لفؤك فى علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكى بدمع قانى
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى ... فكأنما فى نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا ... يختال بعين بكا وبين حنان

٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره ... ماضم من عرف ومن إحسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتك بالدمع الهتون غوانى
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون : بأى قلب ترتقى ... بعد المنابر أم بأى لسان ؟
٣٩ فلو ان أوطاناً تصور هيكلا ... دفنوك بين جوانح الأوطان
٤٠ أو كان يحمل فى الجوانح ميت ... حملوك فى الأسماع والأجفان
٤١ أو صيغ من غرر الفضائل والعلا ... كفن لبست أحاسن الأكفان
٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقية ... لم تأت بعد ، رثيت فى القرآن
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل ... قنط ، وساعات الرحيل دوانى
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها ... دمع تعالج كتمه وتعانى
٤٦ تملى وتكتب ، والمشاغل جمة ... ويداك فى القرطاس ترتجفان
٤٧ فهششت لى حتى كأنك بائدى ... وأنا الذى هدم السقام كيانى
٤٨ ورأيت كيف تموت آساد الثرى ... وعرفت كيف مصارع الشجعان
٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما ... ما للمنون بدكهن يدان
٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء ، فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجنانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى ... لنظمت فيك يتيمة الأزمان
٥٢ وأنا الذى أرثى الشموس إذ هوت ... فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى ... وتجل فوق النيرات مكانى
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقنى ... فيك القريض وخاننى إمكانى
٥٥ هون عليك ، فلا شمان بميت ... إن المنية غاية الإنسان
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها ... عزت على كسرى أنو شروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها ... فهل استرحت أم استراح الثانى ؟

---

٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها ... هذا ثرى مصر ، فنم بأمان
٥٩ اخلع على مصر شبابك عالياً ... والبس شباب الحور والولدان
٦٠ فلعل مصراً من شبابك ترتدى ... مجدا تتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته ... بعض المضاء تحرك الهرمان

٦٢ علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حانى
٦٤ أقسمت أنك فى التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان

(و) كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل ، وسماها قصيدة ، لأنها لم تأب أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى أربعة وستين بيتاً منظومة فى كل شئ أو فى لا شئ . فاعتبرها أيها القارئ على هذا الترتيب ، ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتاً لم تزد ولم تنقص ، ولم تخسر حسنة كانت لها ، بل لعلها ربحت وعادت أحسن نسقاً وأقرب نظما .

ترتيب آخر

قال شوقى أيضاً :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى مأتم والدانى
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى
٦٤ أقسمت أنك فى التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والـ ـخطرات والأسرار والإعلان
٩ أبكى صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليك ، كرامة للجانى
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة قصر يريك تقاصر الأقران
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها عزت على كسرى أنوشروان (١)
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع الهتون غوانى
٥٥ هون عليك ، فلا شمات بميت إن المنية غاية الإنسان
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائق وثوان
١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وأمانى
٦٠ فلعل مصراً من شبابك ترتدى مجداً تتيه به على البلدان
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملء معالم الجثمان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضلل قنط ، وساعات الرحيل دوانى
٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما ما للمنون بدكهن يدان

---

(١) سقط هذا البيت فى الترتيب الثانى للقصيدة ، من الطبعة التى بين أيدينا فاخترنا له هذا الموضع

٦١ فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٤٦ تملى وتكتب ، والمشاغل جمة ويداك فى القرطاس ترتجفان
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعانى
٤٧ فهششت لى ، حتى كأنك عائدى وأنا الذى هد السقام كيانى
٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء ، فهاكه من أدمعى وسرائرى وجنانى
٤٨ ورأيت كيف يموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت ، فعقنى فيك القريض ، وخاننى إمكانى
٥٢ وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى وتجل فوق النيرات مكانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيك يتيمة الأزمان

---

٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان
٦٣ مصر الأسيفة : ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان
٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن إحسان
٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلا كفن لبست أحاسن الأكفان
٤٠ أو كان يحمل فى الجوانح ميت حملوك فى الأسماع والأجفان
٣٩ ولو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان
٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعد ، رثيت فى القرآن
٢ يا خادم الإسلام ، أجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان
٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا فى المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الأواخر يومذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحبان
٣ لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى فى الزائرين وروع الحرمان
٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

---

٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفانى
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشانى
١٠ يتساءلون ، أبالسلال قضيت ، أم بالقلب أم هل مت بالسرطان ؟
١١ الله يشهد أن موتك بالحجا والجد والإقدام والعرفان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الأخلاق كالعنوان

١٢ إن كان للأخلاق ركن قائم فى هـذه الدنيا فأنت البانى
٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا غاز بغير مهنـد وسنان
٢٠ يدعو إلى العلم الشريف ، وعنده أن العلوم دعائم العمران
٢٢ علمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون فى الشبان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تنح لجبان
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا إيمان

---

٣٠ لفوك فى علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قانى
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى فكأنما فى نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم إذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون : بأى قلب ترتقى بعد المنابر أم بأى لسان؟
٥٩ اخلع على مصر شبابك حاليا والبس شباب الحور والدان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة فى الله والمختار والسلطان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومضلل يجرى بغير عنان
٢٥ ومنعم لم يلق إلا لذة فى طيها شجن من الأشجان
٢٢ المرء فى الدنيا وجم شئونها ما شاء من ربح ومن خسران
٢٤ والناس غاد فى الشقاء ، ورائح يشقى له الرحماء ، وهو الهانى
٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

فانظر أيها القارىء : إلى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت؟ على أننا قد تناولنا الأبيات ، عفواً كما بدرت لنا ، ولم نتحر الإقصاء فى الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ، ولا رابطة بينهما ، وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ، ولا تناسب بين معناهما — لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت . وإنما يظهر انحلال هـذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل قرأ فى الشعر أشد تفككا منها ؟؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقى . وهل هى نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه ،

فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد . أم تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة يخلع الضرس . ويجع النفس ؛ فتأتى كالرشاش : لا يتولد منه إلا الوحل واليبس ؟ ؟

وقبل أن تتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية — ننبه من يستبهم عليه الأمر إلى أننا لا نريد تعقيباً كتعقيب الأقيسة المنطقية ، ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية ، وإنما نريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا فى هـــذه القصيدة .

٢ — الإحالة

(ز) أما الإحالة فهى فساد المعنى ، وهى ضروب : فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ، ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه ، وخلو مغزاه ، وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة ، فمن ذلك قوله : الإحالة وضروبها

« السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان »

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس ، لأنها لا تقام على أرجل ، وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقى ، أللهم إلا إذا ظن أنها أعمدة تلغراف . على أنها لو كانت مما يقف أو أن ينكس لما كان فى المعنى طائل ، إذ ما غناء قول القائل فى رثاء العظماء : إن الجدران أو العمد مثلا نكست رءوسها لأجله ؟ ومنه قوله :

« إن كان للأخلاق ركن قائم (فى هذه الدنيا) فأنت البانى . »

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه . وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقته ونمطه — لما فهم الناس من الكلام شيئا ، ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ، ضير ولا خسارة من قطع لسانه .

(ح) والكلام فى كل لغة ، ولأى قصد — إنما يحتاج إليه للدلالة على معنى معين . أو وصف يطابق موصوفه ، فإن لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهذيان المجنون سواء ، والشعر إذا لم يصح أن يقال فى إنسان معلوم ، أو صح أن يقال فى كل إنسان : فى السياسى والعالم والأديب الكلام للتعيين

والواعظ والصانع — فهو الهذيان بعينه(١). فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ أيفهم أنه وحده هو الباني لكل ركن للأخلاق فى هذه الدنيا ؟ إذن فماذا يقال عن النبي إن قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟ وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الآفاق ، وفى خطيب المحافل ، وفى التاجر السرى ، والوزير المحنك ، والمربى المرشد ، والمخترع الحاذق ، بل فى كل إنسان بل فى الناس جميعا ، بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فإنه — على كل وجه صرفته — قول خلا من الصدق والمدلول ، سواء أرثيت به حجرا ، أم رثيت به كنفوشيوس(٢) الذى دان بمذهبه ألوف الملايين منذ ألوف السنين . ولا جرم أن كنفوشيوس إن كان سن للناس شريعة فما كل الأخلاق فى الشرائع(٣) ، وهب الشرائع مصدر الأخلاق كافة فليس كنفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما تاريخ (هـــذه الدنيا) تاريخ جيل واحد .

ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة ، فلو قيل فيه : إنه موقظ كل كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا ؛ إذ لم فى مصر من رجل أيقظه ما أيقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف ، وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا ؟ فإذا زيد على ذلك « أنه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر » فقد

---

(١) روى البحترى أنه كان فى حداثته يروم الشعر ، ويرجع فيه إلى طبعه ، حتى قصد أبا تمام يستنصحه فكان مما أوصاه به قوله : . . « وإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وشرف مقامه ، ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الوزرية وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإن عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشاعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين » (زهر الآداب ١ / ١٥١)

(١) معلم الصين الأكبر ، يدين بمذهبه أهل الصين ، وديانته شعائر سلوك وفرائض تهذيب وتثقف ، توفى سنة ٤٧٨ ق.م ، فأقاموا له الهياكل وعبدوه على طريقتهم فى عبادة الأسلاف الصالحين (انظر كتاب « الله » للعقاد ص ١٩ — ٨٢ ، وكتابه « سن ياتسن : أبو الصين » ص ٤١ — ٦٠)

(٢) انظر فى التفرقة بين مصدر الأخلاق والعقائد والأدب كتاب « الفلسفة القرآنية » للعقاد ٣ — ٩ ، ٢١ — ٢٦ ، وكتابه « الله » ص ٥ — ١١ ، ١٦ — ٢٠ ، ٣٥ وكتابه « سألونك » ص ٣٣ — ٣٦ ، ١٢٠ — ١٢٣

صار الكلام لغوا وسفها . فإذا لم يكتف بهذا ، وقيل عنه : إنه « موقظ كل الناس من جميع الأمم فى جميع العصور » فالأمر شر من اللغو ، وأقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية ، فما ظنك إذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الإصلاح الأخلاقى ، فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام فى « هذه الدنيا » إلا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأنها من بنائه قبل مولده ، وحيث لم تخطر له قدم ، ولم يسمع لاسمه صدى ؟ إذن يكون بكم العجاوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .

(ط) ومن الإحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون فى الثرى آمال لنا وأمان لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل : هل فى قلبك آمال وأمان ، إلا فى معرض التبكيت والتأنيب ، كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعى : يا هذا الذى يمشى ، هل أنت حى ؟ ولقد قال حكيم :

أمثلة للاحالة

« تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى . »

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدى الهمم .

ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا إيمان

الصواب فى إظهار فضل الشجاعة أن يقال : إنها لازمة فى أصغر المطالب ، وأقرب الغايات . كما يقال فى إظهار فضل المال : إن الإنسان لا يقدر على أن يشترى إبرة بغيره ، ولا يقال فى الدلالة على شدة لزومه ، وبيان الحاجة إليه : إنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه . ولو قال شاعرنا : إن أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا — فى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة ، فلا يحتاجوا إلى الشجاعة . أما إن قيل : إن الشاعر يعنى أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لا بد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ

الكلام بما هو أفرغ منه .. وهل إذا سمعت أيها القارىء رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا — أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى ، إن صح أنه يعنى ما افترضناه .

ومن إحالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

والذى يقوله الناس — وشوقى منهم إذا شاء — أن فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وأن سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعيته ، وقد يقولون : إن القانع السالى ينفسح له سم الخياط ، ويرحب به جحر الضب !! فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا ، والسلوان يحرجها ، فرأى لا يخطر إلا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الإحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف ، أما الصبر على نعماها فماذا هو ؟ ؟ ولكن ويحنا ! فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان ، فلا غرابة فى أن يصبر الإنسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما أصدقه ، فإننا لا نرى منحة هى أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى أنعم الله به عليه ، ولله فى خلقه شئون . ويقول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى فكأنما فى نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا ، والقمران اثنان . فمن كان الثانى فى ذاك النعش ؟ ولا يقال : إن صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين ، لأن السناء هو الرفعة ، والسنى النور ، والشمس والقمر كلاهما رفيع منير . فلو أنه قال : « كأنما فى نعشك القمر » أو « كأنما فى نعشك الشمس » لما نقص فى الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ، ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟ ! وما هذا الرثاء الذى لا يتم إلا بإلقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك ، فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر ، وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر : فالمدرسة سكر ، والكتاب سكر ، وأبوه سكر ، وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر ، وممدوحهم شمس وقمر ،

ومعشوقهم شمس وقمر ، وأولادهم شمس وقمر ، ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ، ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

إى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار (١) والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمسة مليمات ، وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان

ونقول : إنما يرثى بهذ البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها ، فإذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه ، إذا كان لا يدور بخلد أحد أنه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهرمين فى هذا البيت ، ونحن نعى على هذه المبالغة دائما أنها لا تدل على شىء . فهب أنه قال :

فلو أن بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال :

فلو أن بالشطين من عزماته بعض المضاء تحرك الشطان

إلى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك ! ثم هب أنه قال البيت فى رثاء مصطفى ، أو فى رثاء باستور ، أو رثاء ابن زريق (٢) ، أو مشهور كائنا من كان — فماذا يختلف من المعنى ؟ ! ومتى كانت الأوصاف لا تتغير بتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟ !

---

(١) « الشمس والقمر والنجوم » لعبة يتسلى بها الأطفال فى مصر ، وهى عيدان رقيقة من الحديد كالأقلام طولا ، ثلثها عارية لإمساكها منه ، وثلثاها الباقيان تغطيهما مواد متفجرة خفيفة ، فإذا أشعل أحدها تفجر منه رشاش قصير متوهج من النيران الزرقاء والحمراء ، يصحبه نشيش ، ولا خوف من أذاها .

(٢) مصطفى زعيم مصرى ؛ وباستور عالم فرنسى ؛ وابن زريق شاعر بغدادى .

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارىء — ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فإنها مصر بريفها وصعيدها — مصر كلها ما هى إلا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثى رجلا أحيا نهضة فى بلاده فيجعلها قبرا ، ولأى ضرورة ؟ وليدل على ماذا ؟ لاشىء .

وقد اجتزأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل ما فى القصيدة من شواهد الإحالة ، واعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وإن كان رديئا ممجوجاً ، وما سواها تافه لاطعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فإذا سلم منها بيت من النقد فإنما أكثر سلامته من الخلو لا من الإتقان .

٣ — التقليد

(ى) أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعانى ، وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة ، وأعز أبيات هذه المرثاة على ضروبه وأمثلته المعجبين بها مسروقة مطروقة . فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى

مقتضب من بيت المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى ، وحاجته ما قاته ، وفضول العيش أشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم إذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الأنبارى فوق تشويهه ، وذاك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به . وإنما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة . وقوله :

أو كان يحمل فى الجوانح ميت حملوك فى الأسماع والأجفان

مأخوذ من بيت ابن النبيه فى قصيدته التى لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

الناس للموت نكيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ، ولو أنصفوا ما كنت إلا فى صميم الفؤاد

على أن المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه أن تنظمه « عوالم(١) » الأفراح فى أغانيها، وحسب الشاعر ألا يكون أبلغ ولا أرفع من القائلات « أحطك فى عينى ياسيدى واتكحل عليك » وإنه ليقول كما قلن :

ولو أن لى علم مافى غد خبأتك فى مقلتى من حذر

وقوله :

أو كان الذكر الحكيم بقيـة لم تأت بعد ، رثيت فى القرآن

منظور فيه إلى بيت المعرى :

ولو تقدم فى عمر مضى نزلت فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

أوصيغ من غرر الفضائل والعلا كفن لبست أحاسن الأكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف .

فما أضاف شوقى إلى هذه المعانى سوى أنه جعل الأكفان تصاغ، وأنه تحذاق، فقال:

فلو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان .

يريد جسدا ، كأنه يحسب أن الأوطان إن لم تصور جسدا لم يدفن الفقيد النابه فيها!

وربما سرق شوقى مالا يستحق أن يسرق فهذه شطرته : « لما نعيت إلى الحجاز منى الأسى » أليست هى شطرة الشريف الرضى فى إحدى همزياته : « لما نعاك الناعيان مشى الجوى . » ؟ !

وكذلك هذه الشطرة « إن المنية غاية الإنسان » هى من قول الشريف أيضاً : « إن المنية غاية الإبعاد » . وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد إليها فى رثاء فريد إذ قال :

من دنا أو نأى فإن المنايا غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة فى قصيدتين . وسنعود إلى بيان سرقاته فى فصل على حدة .

---

(١) « عوالم » الأفراح فى مصر طائفة من النساء المتبذلات الخليعات يحترفن الرقص والغناء والتقرعل الدفوف ودق الطبول ، وهن يدعين لاحياء الافراح كالزواج والختان ونحو ذلك عند الدهماء . وأمثالهم ، وهن كالقيان فى الزمن القديم .

٤ ــ الولع بالأعراض دون الجواهر

(ل) ويشبه الإحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر ، وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليد ومذاهبه . بيد أن الفرق بينهما كالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ، ولكل منهما سبب يمت به إلى الآخر ، إذا تشابها فى الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ ، وقد يسهل التفطن إلى الإحالة ، ولكن التفطن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة ، كما يعسر على الأطفال إدراك رزانة الرجال . أنظر أيها القارىء إلى هذا البيت :

الصلات الجوهرية والعرضية

دقات قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائق وثوانى

فإنه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقى ، فعلى أى معنى تراه يشتمل ؟ معناه أن السنة أو مائة السنة التى قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل إذا قال قائل : «إن اليوم أربع وعشرون ساعة ، والساعة ستون دقيقة» يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ ! ولكنهم يقولون لك : «إنه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة ، وهذه هى البراعة التى تعجبنا ، وبها هدانا إلى واجب الضن بالحياة» ــ وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التى يذهبون إليها فى إعجابهم . وأن بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية ، بل بمشابهات الحس العارضة . وإلا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى ؟ وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الإنسان سر الحياة ؟ أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم ؟ وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الإنسانية على علاقة سطحية باختراع طارىء ؟

الحقائق الإنسانية

(ل) ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد : إن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الإنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها (١) ونعيد هذه الكلمة هنا ، ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق

---

(١) الفقرة (م) ص ٣٦ هنا

بفترة محدودة ، ولا تقوم على مشابهة زائلة . فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناعيا يعظه فى موقف جد — وأى موقف جد أجد من رثاء النابغين — فيناديه : « يا أخى صن وقتك ، لأن قلبك ينبض ، كما تنبض الساعة » لأغرب فى الضحك ، ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله . وما ذاك إلا لحسبانه أن الهزل جائز فى الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

(م) وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك فى علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان

صلات عرضية

ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قانى

وللعلم جوهر وعرض ، فأما الجوهر فهو ما يرمز إليه من مجد الأمة وحوزتها ، وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية ، وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة ، وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله ، فشوقى يولع بهذا العرض إذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب أنه ما كان يذكر لك نعش المرثى بالراية المصرية لولم تكن حمراء ، كى يكون لونها دمعاً ، ودمعها دما منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا ، بل هى دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كأن ما احمر منه حول غرته دم البراءة زكى شيب عثمانا

كأن ما ابيض فى أثناء حمرته نور الشهيد الذى قد مات ظمآنا

كأنه شفق تسمو العيون له قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانا

كأنه من دم العشاق مختضب يشير حيث بدا وجدا وأشجانا

كأنه من جمال رائع وهدى خدود يوسف لما عف ولهانا

كأنه وردة حمـــراء زاهية فى الخلد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان فى لون الشفق ، حتى الدم إذا ذكره يكون خضابا لشيبة ، أو دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدوداً من حيث خلق الله له خدين ، ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها ، بل ليته طابق الواقع المحسوس إذ هو

قد وصف هلالا أبيض فى أثناء حمرة، والهلال الأحمر على عكس ذلك، كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه إليه — ومع هذا فإنى لأقسم أن صاحبنا رص هذه (الكأنات) فى أبياته الستة ويخيل إليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال: أشعركم من يقول: «كأن وكأن» لا من يقول: «من ومن (١)».

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية، فيسرع بنفى الخجل والريبة عن احمرارها، كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفة! إذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة فى هذا المقام، وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا:

إن كان للأخلاق ركن قائم (فى هذه الدنيا) فأنت البانى

ولكنها الغباوة لا تعلم إذا بدأت أين تنتهى بصاحبها!! وليت شعر شوقى إذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول؟ أكان لا يرى للف النعش بها أى معنى، لأنها لا تبكى بدمع أحمر؟؟

(ن) تلك آية شوقى ومعجزته: آية السيمياء. معجزة الشعوذة. كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال. ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع، جهله بالتاريخ حاضره وماضيه فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط، وسملا مرقعاً من النشوز والاختباط. وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر، فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو، ويستقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل إلى مكة، فلا يقول:

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى فى الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان فى الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكى، وكل قارئ للصحف

---

(١) قدم وفد غطفان على سيدنا عمر، فقال: أنشدونى لأشعر شعرائكم، فسألوه عنه فقال: «أشعركم من يقول: من ومن» يريد به شاعرهم زهير بن أبى سلمى، لبدئه كثيرا من أبيات معلقته بقوله: «ومن»، وكان عمر من أشد العرب اهتماما بالشعر؛ وحفظاً له؛ ومعرفة به. (انظر فى «عبقرية عمر» للعقاد فصلا عن «ثقافته»؛ وكتاب «نهاية الأرب من شرح معلقات العرب» فى الكلام عن زهير، و«سيرة عمر بن الخطاب» لابن الجوزى: الباب ٥٨؛ ٦٠)

ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم أن ليس حيال ربا مكة سكة كبرى ولا صغرى وكذلك هى حتى الساعة .

وكان فى مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع فى موكب حاشد كما شيع مصطفى ، فلا يقول فى وصف نعشه :

وكأنه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف ، أفتراه لم يفقه رائيته التى يقول منها فى مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه إلا بوطء من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضى وهى تنهبه نار تحكم فى جسم من النور
تهابه الوحش أن تدنو لمصرعه وقد أقام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ، ومن العامة من يستظهر خبره ، ويعلم كيف أنه قاتل حتى أثخن بالجراح وأنه — لا حيا الله قاتليه — مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ، ثم ديس بالخيل ، ورض جسده واحتز رأسه ، وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله إلى يزيد فى خبر فاجع لا حاجة إلى تفصيله (١) . وأنى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب ؟ ؟ ولا تقول يختال بين البكاء والحنان ، فما من أحد ينسب الاختيال إلى النعوش إلا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع قتيل إلى قبره وزف عروس إلى خدرها ، فإن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح ، لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب ، فما رأيناهم يحملون نعشا ، وإنما يقتادون جوادا مسرجا ملجما ، لأنهم أزكن من شوقى وأدرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين . إذ كانوا يحتفلون بمصرعه فى ميدان حرب لا بمدفنه فى الثرى .

كان يسعه ألا يقول ذلك ، كما كان يسعه أن يسكت ، ولكن ألهم أن يستقصى عاهات

---

(١) انظر وصف مصرعه الفاجع وما تلاه من فظائع فى كتاب العقاد «أبو الشهداء : الحسين ابن على» فى فصل عنوانه «كربلاء» وأخبار سنة ٦١ فى «تاريخ الطبرى» و«تاريخ ابن الاثير» وكذلك فصل خلافة يزيد بن معاوية فى الجزء الثانى من «مروج الذهب» للمسعودى ، و «التنبيه والإشراف» له ، و «الفخرى» لابن طباطبا .

الشعر ما يتداركه منها إذا شاء ، وما لا يتداركه . وأن يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده ، وهو فى الحقيقة يكافأ المكافأة التى يستحقها ، فإنه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ، ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان إلا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة ، أو يقال عنه : إنه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون . .

(س) ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة وبما يتسامى به إلى مضاهاة المتنبى ومضارعة المعرى ، قبل أن نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم ، وأن نروز تلك البديهيات وأشباه البديهيات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد ، لعله يريحنا من هبنقياته(١) ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

الحكمة الصادقة فى الشعر

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب الشعر مراماً وأبعده مرتقى ، لا يسلس قيادها لغير طائفة من الناس توحى إليهم الحقائق من أعماق الطبيعة ، فتجرى بها ألسنتهم تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ، ويلقى أحدهم بالكلمة العابرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هى فصل الخطاب ومفرق الشبهات ، تستوعب فى أحرف معدودات مالا تزيده الأسفار الضافية إلا شرحا وامتدادا . وتسمعها فتشع فى ذهنك ضياءها ، وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ، ويأتلف القدم والجدة ... قدم الحقيقة كأثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب ، والنفس الحية التى تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق : كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو له الحياة ، وهما :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل عما مضى منها وما يتوقع ،
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعى ، والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه ، والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيده ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغتنمون من الحياة

---

(١) نسبة إلى هبنقة ، جاء فى القاموس : « ذو الودعات هبنقة يزيد بن ثروان ، لأنه جعل فى عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف ، مع طول لحيته ؛ فسئل فقال : « لئلا أضل » فسرقها أخوه فى ليلة ، وتقلدها فأصبح هبنقة ، ورآها فى عنقه فقال « أخى ، أنت أنا ؛ فمن أنا ؟ فضرب بحمقه المثل »

صفوها على قدر حظهم الذى قسم لهم من الشعور بها ، ومهما يجهد الجاهد فلن يجد إنسانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال، ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة إلا نقص بقدره من المعنى .

وقارة يلمع إلى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها، كقول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول (١) المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل .

وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحترى :

متى أرت الدنيا بباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل، كقول المتنبى المأثور:

والظلم من شيم النفوس ، فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أو كقول أبى فراس :

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شىء كاف

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع ، أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ، ومنها بيت العباس بن مرداس :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور (٢)

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب ، بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسل ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات ، كما صنع الأفوه الأودى بهذا البيت الفذ :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

---

(١) الطول حبل بطول للدابة ترعى فيه ؛ والثنى الطرف (عن الاصل)

(٢) المقلات التى تضع واحدا ثم لا تحمل ، والنزور القليلة الولد (انظر مصداق ذلك مؤيدا بالبراهين العلمية والشواهد الحية فى « الفصل الثالث : تنازع البقاء » من كتاب « أصل الأنواع » للعلامة الإنجليزى دارون ، مما يدل على نفاذ نظر العباس بن مرداس، وعمق بديهته .

فقد حفيت الأقلام بحثاً وتنقيبا فى علوم الاجتماع، وكلت القرائح تدبرا وإنعاما فى شئون الأمم، وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير، فما خرجت كلها بزبدة أوجز ولا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التى اهتدى إليها هذا البدوى الناشىء فى عصور الجهالة ، وإنك لا تزن أمة بميزان هذا البيت إلا كنت على ثقة من السداد والإصابة(١) .

هذه هى الحكمة الصادقة، وهى كما ترى غير مقصورة على إيراد الحقيقة المسلمها، وإنما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة إلا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

حكمة عامية

(ع) والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة ، أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ، ولا لسابق على ناقل ، إذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ، وكانت تلك كمن يلتمس الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهر من يروح ويغدو ينظم من أشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التى حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية (كالعلم نافع، والصدق منج ،والبركة فى البكور ، واحترم الأستاذ تتقدم ، وفى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة)وما إلى هذه النصائح والأمثال والحكم — ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها :

لى دولة الشعر دون العصر وائلة مفاخرى حكمى فيها وأمثالى !!

فهل يدرى القارىء من صاحب الحكم والأمثال الفخور ؟ ؟ إنه هو شوقى ، ثم هل يدرى ماحكمه وأمثاله التى استتبت له بها دولة الشعر ؟ ؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس إذا الأعلام خانت بخذال

والعلم فى فضله أو فى مفاخره ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقال للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب وإجلال

---

(١) انظر ختام كتاب « فلاسفة الحكم فى العصر الحديث » للعقاد .

بالعلم (تملك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال .

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول، نحو (العلم نور، من عاشر العلماء وقر، تعلم العلم، احفظ الدرس، حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب) وليسأل نفسه : ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته ؟ وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه ؟ وماذا فيها من وحى الشاعرية ، وإلهام البصيرة ، ونهية العبقرية وأصالتها ؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر — فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية ، وليستفيدوا :

المحسنـــــــون هم اللبا ب وسائر الناس النفـــــاية

إن القضـــاء إذا رمى دك القواعد من ثبير

والمال لا تجنى ثمار رءوسه حتى يصيب من الرءوس مدبرا

الجـــد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المفراح

سر فى الهواء ولذ بناصية السها ألموت لا يخفى عليه سبيل

فلم أر غير حكم الله حكما ولم أر دون بـاب الله بـابـا

وإن البر أبقى فى حياة وأبقى بعـد صاحبه ثواباً

ومن يعدل بحب الله شيئاً كحب المـال ضل هوى وخابا .

وما الرزق مجتنب حرفة إذا الحـظ لم يهجر المحترف

ما الدين إلا تراث الناس قبلـكم كل امرىء لأبيه تـابع تـالى

ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر وإماء

ارم النصيحة غير هائب وقعها ليس الشجاع الرأى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال(١) وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة، فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى إثر واحدة، فيفهمه متئدا أنه «إن آل لك حد الراكب مثل الماشى أول له بتفشر(٢) وإن آل لك حد : الغنى مثل الفقير، أول

(١) فى هذه الحكاية طلب التاجر من الحمال حمل بضاعته مقابل هذه الحكم .

(٢) هذا كلام ظاهرى معناه : إن قال لك أحد : « الراكب مثل الماشى » فقل له : « أنت تكذب » .

له : بتفشر ، فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى رأى شوقى أن يسمعنا نظما « إن آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر » ، فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية ! !

وهل علم أحد أن المسافر إذ آب فقد آب قبل أن يقول شوقى :

وكل مسافر سيئوب يوماً إذا رزق السلامة والإيابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا إياهم :

أليس الحق أن العيش فان وأن الحى غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟ !

أم حكم أحد الأحلام إلا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر لو أن قوما حكموا الأحلاما .

(ف) ومن أمثلة حكمه المغشوشة المعتملة قوله :

لئن تمشى البلى تحت التراب به لا يؤكل الليث إلا وهو أشلاء

والبيت من قصيدة شكسبير ، ومعناه أن جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها ، أى أنه لم يمزقها حتى مزقها ، ولم يبلها حتى أبلاها ، ولم يتلفها حتى أتلفها ، ولم تتفتت هى حتى تفتتت مهابة وإجلالا ! .. وأنه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما أن الأسد لا يؤكل إلا عضوا عضوا . .

حكمة الدجل

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين ، والأرض والسماء ، المحسن إلى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والإيماء ، تصفيق متواصل . . لا . بل ضحك تتجاوب به الأصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء . . فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فيا هذا ، إن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها فى الحياة جسد تفوقه فى الحسن والقوة أجساد كثيرة ، وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الأحياء من أكلها إلى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال : إن الموت يتهيب جسده ، لكان ذلك أليق بأبطال الحروب ، إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول فى أبى شجاع :

« من لا تشابه الأحياء فى شيم أمسى تشابه الأموات فى الرمم »

وهو من نعم محضاً الحروب، وابن الكريهة، وحلس الخيل. كانوا يلقبونه المجنون لإقدامه وتهجمه ! فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟! وعلى أنه لا معنى لأن يقال: إن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه. لأن تمشيه فيه هو التقسيم. ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل إلا وهو أشلاء. لأن الشأن كذلك فى كل مأكول، فالفأر أيضا لا يؤكل إلا وهو أشلاء، والدجاجة لا تؤكل إلا وهى أشلاء. بل حتى الأرز لا يؤكل إلا وهو أشلاء ممضوغة. وما من شىء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الآكلين. وصاحبنا يرى شاعرا فيخلط هذا الخلط. فعافاه الله أى نوع من أنواع العظمة يفقه إن كان لا يفقه العظمة التى يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟ ؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فإنه يصح فى كل حيوان ؟ ؟

ص — على أن لشوقى دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الإعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة إن كنت فهم إن عزرائيل فى حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل من توقاه اتقى نصف العلل
واتخذ سكناك فى طلق الجواء بين شمس ونبات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور تبخل الشمس عليها بالمرور

حكمة الاعلانات

ونقول : إن كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب: «احترس من النشالين» و «إن أردت النزول أطلب من الكمسارى توقيف القطر(١)» — بليغة يستملى الحكمة، ويستمد وحى للشعر، ويرتجل البلاغة ؟

الحكمة المطبوعة

(و) وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعا ويجوز أن يكون من جوامع الكلم، ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته، وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما هى، ونختارها من معان ورد مثلها فى شعر المتنبى الذى يفتنى شوقى أثره ويطمع أن يجاريه وهذا بعضها :

---

(١) هذان التنبيهان يكتبان على لافتتين فى كل من مراكب الترام وقطاراته فى مصر، لإرشاد الركاب. وللتنبيه الأول دلالته البينة، ومعنى الثانى «إن أردت النزول فاطلب من المحصل وقف القطار».

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

إلف هذا الهواء أوقع فى الأ نفس أن الحمام مر المذاق

من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفينا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل فى طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن أن تقع لشوقى(١) ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته فى نقل هذه الأحاديث منظومة فإذا هى مثلا :

« الجود مفقرة والإقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة » وهكذا عهدنا الأمثال العامة. فإذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة فكلاهما صحيح ، ولكن ليست الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الملهمة ، والطبيعة المشرقة ، والسريرة العميقة ، وإنما المصدر الذى تبجست منه ، والشخصية التى طبعتها ، بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية — هى بغيتنا من نجوى الإلهام . وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لأن هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة . وتنبئنا وحدها بأن فى البيت حقيقة أقرب إلينا وحجة ألصق بنا ، ونمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « إلف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟ أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كيانها إلا عادة تألفها زمناً ثم تتبدلها؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول أن الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون ، لأنها صوغ متاع مشاع ، على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساساً ، وإن يقاربوها ولو اختلاسا لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ، ولن يحسنوا مصاهاته وإن

(١) راجع مثل هذه الموازنة بين المتنبى وشوقى فى كتاب « شعراء مصر » ص ١٥٨ — ١٦٠ للعقاد ، وانظر بيان حكمة المتنبى فى كتابه (مطالعات فى الكتب والحياة) ص ١٤١ — ١٧٣

اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية . لما يبهرهم من رنين صياغتها ، وبريق طلائها ، فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون إليه أن يأتوا بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة، وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية: فأما الأولى فبنت المران والمكابدة، تقرأ آلافا من أمثالها فى كتب اللياقة ونصائح «إياك وحذار، وعليك، وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة، وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة ، وضمائرها السرمدية، كتابها صفحات الأكوان وسريرة الإنسان ، ومن ينابيعها تتفجر العقائد والأديان ، وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة ، والثانية قبس من نور الحياة الدائمة وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك فى غلبة الصناعة عليه ، كالحريرى على ما أذكر حين يقول :

كل من فى الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها . ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى، فظن أنه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق أنه له، أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به ، وهو :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرره فقال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولت مضوا فى إثرها قدما

ثم كرره أيضا فى قوله :

وليس يعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره إذ يقول :

ملك على الأخلاق كان بناؤه من تحت أولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد أخرى ، وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل إن كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ، ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف، فإنما يقرر

البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون (١) المجنون يضحك الناس فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشى ولها ذنب

لا تغضب يوماً إن شتمت والناس إذا شتموا غضبوا

إلى أن يقول :

النـاقة لا منقـار لها والوزة ليس لهـا قنب

وكثير فى قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها : إنها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ، ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا : «إن كان للبيت مدلول» ، لأن البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو أنك حذفت كلمة « الأخلاق » وجعلت مكانها أصفاراً ـــ لما نقص من معناه شىء ، لأن هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدوداً فى الذهن ، فقد تكون بمعنى الآداب : كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش ، وهو ما يفهم أحيانا من كلام الإفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة . فأى المعنيين يقصد شوقى ؟؟ (٢) إن من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى ، وقد

---

(١) هو على بن سودون العلاء البشبغاوى (٨١٠ ـ ٨٦٨ هـ = ١٤٠٧ ـ ١٤٦٣ م) ذكر السخاوى أنه ولد فى القاهرة ، وعاش فيها أكثر حياته ، ثم رحل إلى دمشق ، وكان فقيها حنفيا ، وأم ببعض المساجد ، وحج وغزا مرارا ، وشارك مشاركة جيدة فى فنون مختلفة وكان بارعا فى الأدب فى زمانه ، وطريقته فيه غاية فى المجون والهزل والخلاعة « فراج أمره فيها جدا ، وطار اسمه بذلك ، وتنافس الظرفاء ونحوهم فى تحصيل ديوانه » وحين رحل إلى دمشق أقام فيها وتعاطى « خيال الظل » أو ما نسميه « التمثيل » وله تآليف منها « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وهو مطبوع ، ومنها « قرة الناظر ونزهة الخاطر » « ومقامات » وهو غير على بن سودون العلاء الإبراهيمى الصوفى معاصره (مات سنة ٨٨٠ هـ) وكان مثله قاهريا حنفيا (ترجمته فى « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ٥ / ٢٦٩ للسخاوى و « الأعلام » للزركلى ٢ / ٦٧٣)

(٢) سبب ذلك أن كلمة « الأخلاق » مشتركة فى العربية ، فقد تطلق عندنا ويراد بها الآداب كما قال الأستاذ العقاد هنا ومثل لها ، ويقابل ذلك عند الإفرنج Morals ، وتطلق على الطباع كما قال ومثل لها ، أو على القوام أو الكيان أو الشخصية وتقابلها Characters ، وتطلق على حسن السلوك ويقابلها good manners والأخلاق بالمعنى الأول قد توجد حيث لا توجد فى إنسان بالمعنى الثانى أو الثالث والعكس صحيح . فأى هذه المعانى يريد شوقى ؟

تعد الكذب والسرقة فضلا، وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم ، وإن منها لما تحمد عجاياه ، ثم لا تلفيه من القوة على نصيب وافر . فليقل لنا شوقى : ما غناء بيته إن كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو إسرائيل ؟

ولقد أضحكنا مرة أحد الثرثارة الذين يتلقفون من الكلام مالا يفقهون ، فقال لنا: إن البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس ، وإن فى ذيوع بيت شوقى لدليلا على قيمته . فقلت له : يا صاح ، أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى :

لا تقل أصلى وفصلى أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

فإن كان لهذا الشعر قيمة فهنيئاً لنا ! ، إننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم ، بل هنيئاً للإنسانية ، فإن الشمس لا تطلع إلا على الحكماء من أبنائها .

٩ — رثاء الأميرة فاطمة

فكاهة الرثاء

(١) أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبى المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبى ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما إن دفنوا بالأمس إلا نيرة ..

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقى رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت إسماعيل ، وهى منثور قوله :

حلفت بالمسترة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء فى الحظائر المنورة
مراقد السلالة الطيبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى بالأمس إلا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبى وإمام — أنه لنسيج وحده فى فكاهة الرثاء ، إن كان للرثاء فكاهة ، ولم — لعمر الله — لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقى فى مراثيه أجمع فناً مبتدعاً منه . وطفق يبكى من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزاح ، ويقترن العبث بالمدح ؟ أفرأيت أحداً قط يقسم لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب

أو يتق أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة — غير شوقى ؟ وإذا اطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسماً فى أصول البلاغة مصطلحاً عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا. أو اسماً آخر مقبولا لديه إن لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وإنها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعاً وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول: سنريهم أنها ليست بفلتة نظم، أو هفوة خاطر، ولكنها أصول يرعاها ، ورسوم يعيها ولا ينساها . وإلا فلو كان حذره من التكذيب وإتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه إلى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرة

وكل دمع كذب ولوعة مزورة

ألا إن الأمر بيّن لمن ينصفون .. فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم، فأشعرنا الريب واتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة ، فأرانا حكمة ذلك القسم ،وأنه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وإنما تفننا واختراعاً لم يسبق إليه ، ونرجو ألا يبارى فيه . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلا بد إذن من أن يتقى له اسم مبتكر طريف ، وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه عجيب والله أمر هذا الرجل ! ! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ، ولا توقراً أقرب إلى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل بالإجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ، ومبرات الأميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها!! وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر — إذا لم يصدقها الناس — بالإيمان أو البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز عن هذا ونسأله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعده: إن الدموع الكاذبة لا تغنى عنها ، وإنه :

لا ينفع الميت سوى صالحـــــــة مدخرة

أيقول ذاك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته

عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟ ؟

(ب) ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقى عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو :

جهله بحالات النفوس

فاطم من يولد يمت المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين إليه أبا العتاهية حيث يقول :

قد عبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية ، واعلم أنما الشيب للمنية جسر

فالذى صنعه شوقى هو أنه سرقه وشوهه كعادته ؛ لأنه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة ، وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا ! والصحيح أن المهد أول مراحل الجسر ، والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

سرقته وفساد تعبيره

والبيت الثانى أو هو بيت القصيد فى رأيهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الأذواق وانتكاسها ، فقد دل به شوقى على سقم تعبيره وأراد أن يقول : إن المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت ، فعكس المراد لأنه كنى على صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة . ولفظها محبوب يرتاح الإنسان اليه لما فيه من إزالة المرارة عن فمه ، ولو أنه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة ، حتى إذا أدركه الموت

حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها « السكرة » ! ! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا ..

ومن ترهات شوقي التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس فى غـد ميتـة فمنشرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ، ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين ، وهى تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى أن يقول : إن كل نفس تموت منشرة غدا — فخانه الأداء وخذلته العبارة ، وهى لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين إثباتها وانتقادها ، وحسبنا ماشغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب فى الهواء ، ولا نطرح فى البوتقة الحصباء ، والشعر إذا تساوى فيه النقد والإغضاء خير منه الصحائف البيضاء .

١٠ — ما هذا يا أبا عمرو ؟ ؟

(ا) مصطفى أفندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه ، يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا ، وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول أناتهم ، وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أو جله ، إذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه ، فتجوز دعواه ، وينفق إلحافه عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف — إذا كان رائده الخرق فى الرأى — وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل إحدى المرار ، فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفداه بكل ما فى دماغه من هوس ، وما فى لسانه من كذب . وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى ، فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه ، وأن قدميه أساس مقادا من رأسه ، لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة.

ما هو ؟ وما نهجه ؟

(ب) أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقي ، وهو بعض ما ننظر إليه من شعره ، وجماع ما ينظر إليه الرافعى ، لأنه لا يبالى إذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهرة ، وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ! ! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق إليه من عنده مصمية ولا مدمية ، وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة ، فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى أتينا بها إلا

انتهابه نقد نشيد شوقي

انتزعه وسدده، وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين، ولا تصيب من منزعين . ولقد أحسن بنا الظن وأساء ، فلم يستغن عنا، ولم يقدر فينا التنبه إلى صنيعه، وما له — عافاه الله — يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ، ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الإعذار، ولكنه أذن لنفسه بغاية الإفراط ، ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط ، فبعض هذا يا أبا درويش (١) أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغانى فى خطابك، فإن صاحب «المساكين» (٢) حرى أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى ، إن النشيد القومى يجب أن لا يكون وعظاً بل حماسة، ونخوة ، وأن يكون موضوعا على لسان الشعب ،

فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحوّر منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

إلى العلا فى كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت فى الطبعة الأولى :

إلى العلا فى كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن

وما إن طوى هذا الضمير، ووثق من مواراته ، ونفض عن يديه ترابه ، حتى وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا ، وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا الخ. الخ

ويسأله « ومن هذا الوعظ يا ترى ؟ أمن الشعب لنفسه أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألناه من قبل: «فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة؟» وكما أخذنا عليه « أنه استوطأ مطية الفلسفة والمواعظ »

وأنكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا، فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا، وأن لا نبرح نشرع فى التمهيد ، ونأخذ فى الاستعداد ، ونبدأ برسم خطط الملك ، ونهم بتشييد الأركان » .

فجاء أبو عمرو البيغاء فقال : « وإذا قيل اليوم لبنى مصر : هيا مهدو الملك : ومكانكم تهيأ. فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ، ولا يزالون الدهر كله فى تمهيد ؟؟ » ص ٧٨ .

---

(١) كنية كل من كان اسمه مصطفى فى مصر (٢) «المساكين» عنوان كتاب لمصطفى صادق الرافعى

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس « ألم تك تاج أو لكم ملياً ؟؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة، وإنما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت الببغاء أيضاً « أن زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين، وإنما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها ؟؟ » ص ٧٩ .

فلله ما أعلم الببغاوات بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « وتهيأ » تهيا، و « شيئاً » شيا. فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل، وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه، وأصل الكلمة سئلت» ص ٨٢ . فذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين « تطاول عهدهم عزاً وفخراً » الخ الخ

« لأن التنوين لا بد أن يسقط فى الإنشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت» قالوا: «وإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة « فخرا » ومدها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟؟ » ثم قلنا « ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد ».

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم « تنادروا بقوله «فخرا» وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا : إنها مما لا يذوقه أحد الشعراء من طعم كلامه » ثم قال كما قلنا : « ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه»

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهـــرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الأمم الرقيا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفـــوس » فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد، وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣

فاسأله بالله ثم اسأله : كيف غفل ، أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادى النيل عدن الخ الخ

قال « إن البيت الثانى منبتر » ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببنـاء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر ؟»

فترك هو القائل والراوى، وزوى وجهه عنهما ، وصاح وحده : « كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لدنه سؤاله « فإذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟؟ » ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجـلال وألفنا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فإننا إن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الإسلام والمسيحية واليهودية؟» فوضع أصابعه فى أذنيه — أو لم يضعهما (١) — وأصر وولى واستكبر استكبارا، وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فإذا « زعم أنه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له : فإن القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين ، وكل هذه الأديان ملة ذى الجلال» ص ٨٤

هذا كله ولا إشارة إلى الديوان، ولا كلمة يستشف منها أن أحدا تقدمه إلى هذا النقد ، بل لعله قصد إلى ادعائه عنوة . فكتب على الرسالة أنها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠، ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتاباً الأستاذ منصور أفندى عوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر . . . . .

(حـ) فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقززا وعزوفا من أدب الجيل الماضى وأدبائه، ومن صناعة ينتسبون إليها ، ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى، ودستور يفاء إليه ، ووازع يوقف عند حده — أرجحهم منها سهما أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسما أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها، ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وإنما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء .

أدب الجيل الماضى

(١) كان الأستاذ الرافعى — رحمه الله — أصم .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الأغانى فقيدناها لهم، وأبينا لأنفسنا أن ندخلها فى كلامنا مع أنها أهون وجوه النقد التى أخذناها على النشيد، ومع أننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف، وقبل أن نسمع حوار اللجنة بصدده. وهذا رجل لا يستحى أن يسم نفسه على غلاف رسالته « بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها » يعمد إلى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه، ولم ينقطع صاحبه عن إتمامه، فينتحله جملة. ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة، حتى تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام (١) ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحى بفرد كلمة إليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الأناشيد، كأننا حين كتبنا نقدنا فى مصر كان هو يكتب رسالته فى أقاصى الصين أو أطراف السويد، ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة — من أين له الثقة بالنهاون منها والهضيمة ؟ ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره، وظن أنه فاتنا — أبلغ فى الفند والسخف، فنعى على نشيد شوقى خلوه من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال؟ وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه ؟

(ى) إيه يا خفافيش الأدب. أغشيتم نفوسنا أغشى الله نفوسكم الضئيلة، لا هوادة بعد اليوم، السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت. وسنفرغ لكم أيها الثقلان، فأكثروا من مساوئكم فإنكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحسبها الأدب والحقيقة.

إنذار

---

(١) قال فى صفحة ٦٩ « جهد أكثرهم أن يفروا أصنام الطبقة التى هم دونها ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التى هى دونهم » وقال فى صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله، وتوغلت شياطينه، وانفرعت رذائله، فإذا ذهبت تصلح منه التوى عليك » (عن الأصل)

القسم الثانى

رواية قمبيز فى الميزان

١١ — تمهيد

(١) فى سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ثار « أحمس » القائد المصرى على « وهاب رع » فرعون مصر فى ذلك الحين . فاستعان الأول بالجنـــد الوطنيين ، واستعان الثانى بمرتزقة الإغـريق ، فانهزم فرعون وشاركه أحمس فى الملك ثلاث سنوات . ثم خرج فرعون لقتال شريكه فانهزم ثانية وثالثة . ومات قتيلا بأيدى جنوده الإغريق فى أحدوثة أناس، وبأيدى الجند الوطنيين فى أحدوثة أناس آخرين .

ورواية « قمبيز » التى نظمها الشاعر أحمد شوقى تدور على قصة قديمة خلاصتها أن « قمبيز » خطب ابنة أحمس ، فدس هذا إليه ابنة « وهاب رع » القتيل، فغضب قمبيز حين علم بالسر، ووثب لغزو مصر، واستطلع أسرارها من ضابط يونانى يدعى « فانيس » خان مصر وهرب إلى بلاط فارس .

موضوع الرواية والغرض من نقدها

وخيانة فانيس قصة متواترة . أما سبب الغزو الصحيح فحب الفتح والغيظ من أحمس لأنه مالأ أعداء الفرس قبل ذلك بسنوات . هذا محور الرواية بالإجمال .

ونحن نكتب هذا المجالة لغرضين : أحدهما تصحيح الشبهات التاريخية التى تمس سمعة مصر القديمة وقد تمس كرامة المصريين فى العصر الحديث .

وثانيهما إقامة معيار « للشاعرية المبتكرة » يثوب إليـــه بعض القراء الذين يستخفون بالشعر، ويجعلونه من الخسة والهوان بحيث تغنى فيه صناعة اللفظ والطلاء .

فلهذا قصرنا الكلام على قيمة الرواية الأدبية والتاريخية ولم نتعرض لقيمتها التمثيلية ، فحسبنا أن نوفق إلى أداء ذينك الغرضين .

---

(١) كان من أثر ثورة رجال المدرسة الأدبية الحديثة ولاسيما العقاد ، أن يقظ أدباء الجيل السابق لهم من غفلتهم ، وفطنوا إلى قصورهم ، وما فى أدبنا من قصور ، وحاولوا أن يكونوا « عصريين » كما دعت الثورة ، ولا يعنينا هنا إلا التنبيه إلى أن شوقى حاول نظم التمثيليات وغيرها تحقيقا « للعصرية » لأنه وجد للغربيين تمثيليات فظن أن نظمها من لوازم « العصرية » وآياتها ، وإن لم يكن الأمر كذلك بل المدار كله على صدق الشعر لا ذكر العناوين ، ولـكنه أسدى بعمله هذا فضلا مشكورا ، إذ سد نقصا فى أدبنا ، وإن كان فشله فيه ظاهرا ، وكذلك حاول هو وحافظ وغيرهما من شعراء جيلهما طرق أغراض أخرى غفل عنها السابقون ، ليجاروا « مجتمعهم » فى مشاعره ، فيكون شعرهم تعبيرا عنه غير معزول منه ، كما طلبت « الثورة » وهذا الـكتيب « قمبيز فى الميزان » للعقاد نقد لمسرحية (قمبيز) لشوقى ولا نظير لهذا النقد فى أدبنا العربى قديمه وحديثه .

١٢ — النظم

(ا) « قمبيز » أو « كمبوجة » كما يدعوه الفرس هو فاتح مصر فى القرن السادس قبل الميلاد . ونظن أن كارثة الفرس هى آخر ما يحق للشاعر المصرى أن يبدأ باختياره إذا أراد الكتابة فى تاريخ وطنه . فإذا كتب فيها بعد أن يكون قد استنفد صفحات المجد فى ذلك التاريخ فإنما عذره الذى يسوغ له طرق هذا الباب أنه استخرج منه عبرة وفخرا ، وأحال ما فيه من هزيمة إلى معنى أشبه بالنصر وأستر للعار ، وذاك مالم يصنعه شوقى مؤلف رواية « قمبيز » التمثيلية كما سيرى القراء .

اختيار سيء وعلاج أسوأ

(ب) فضل الشاعر الذى ينظم الرواية التمثيلية يبدو فى ثلاثة أشياء : هى (١) حسن النظم والصياغة . (٢) تمحيص حوادث التاريخ ، (٣) ابتكار الخيال فيما قصر فيه المؤرخون .

وسنبدأ بالكلام عن النظم فى رواية قمبيز لأنه أحرى الأشياء أن يجيده شوقى، وأولاه أن يكون معجزته فى الصناعة الشعرية بعد مراسها نيفاً وأربعين سنة ، فلو بلغ شوقى فى صوغ روايته مبلغ الإتقان المعجز لما كان ذلك كثيرا منه بعد طول المراس وكثرة المنظوم ، ولما جاز له أن يزهى بهذا ؛ لأنه قسط ضئيل من النبوغ أو لأنه نبوغ ميسر لكل من يعالجه فى سعة وقت ورفه عيش وفروغ له من كل شاغل سواه . فهو كمال أدنى إلى النقص ، وإحسان أقرب إلى الإساءة .

العوان تجهل الخمرة

هذا إذا بلغ شوقى فى النظم غاية الإتقان . فكيف ترى يكون لومه وخذلانه إذا هبط عن غاية الإتقان المقبول ، ثم هبط إلى السخف والغثاثة ... فإذا هو يقنع من الإعجاز بالعجز ويرضى من السبق بالتخلف ؟ إن لومه على هذا لعظيم ، وإنه لأشد من لوم الفتاة الدميمة تهمل ثيابها طوعا ، ولا زينة لها غير جمال الثياب .

(ح) ولسنا نحب هنا أن نقيس الشاعر بالمقاييس التى يطول فيها اللجاج ويكثر الخلاف ، كلا ! بل نحن نقيسه بما يتفق عليه النظر ، ولا يسعه هو أو يسع أحدا من بطانته أن يمارى فيه .

فأولى هذه الملاحظات قصر النفس واضطراب القوافى والأوزان . فإن جمال النظم فى الرواية التمثيلية التى تتلى على الأسماع أن تنسجم القافية ، وألا تفاجىء الآذان بالنقلة البعيدة فى الموقف الواحد . دع عنك كلام الممثل الواحد ، فلم ذا فضل النظم على النثر ، ووجب التلحين والغناء فى هذه المنظومات .

قصر نفسه واضطراب أوزانه وقوافيه

وأيا كان اعتذار الشاعر فى تغيير الأوزان موقفاً بعد موقف فما نخال أحدا يعذره حين يغير الوزن فى البيتين الاثنين يلقى بهما الممثل والممثلان فى الحوار الواحد أو فى النفس الواحد .. فإذا أحد البيتين من بحر وقافية ، وإذا البيت الثانى من بحر آخر وقافية أخرى .

نعم إلى هذا الدرك من الخلل والإسفاف هبط شوقى فى نظم الرواية .

هبط إليه لغير ضرورة ولغير حكمة ، إذ أن جميع مواقف الرواية التى على هذا النمط مما يسهل نظمه فى بحر وقافية ، ولا سيما تلك البحور السهلة الذلول التى اختارها شوقى وخفيت فيها نغمة الوزن حتى لا تحس إلا بتلمس وطول إصغاء .

ولا نقول ذلك دون أن نشفعه بدليل محسوس لا مراء فيه ، فهذه أبيات شوقى كما نظمها فى الرواية ، وهذه هى الأبيات بعينها منظومة على نسق واحد ، فإن لم يكن هذا النسق أجمل وأسلس وأوفى بالمعنى من شعر شوقى ، فما هو بدونه فى إحدى هذه الصفات .

بدأت الرواية بالموقف الآتى بين تاسو ونفريت :

تاسو : أحوم حول صنمى وحول هذى القدم

نفريت : حول رجلى أنا ؟

تاسو : أجل ، حول هذا الشهد والزبد والنمير الصافى

مابك يانفريت؟ماهذا الأسى؟ ما بال عينيك تريدان البكا ؟

فها هنا بيتان اثنان يقولهما تاسو وحده : كل منهما على بحر وقافية غير بحر الثانى وقافيته . ! وهاهما البيتان كما كان ينبغى أن ينظما بغير إخلال أو اختلاف فى اللفظ والمعنى :

نفريت : أحـــول رجلى أنا ؟

تاسو : أجل ، أعز من مشى

حول النمير العذب و الشـ ـــــهاد ثم والســـنا

ما بك يا نفريت؟ماهذا الأسى؟ ما بال عينيك تريدان البكا

وهكذا يستوى النسق بغير قصور فى اللفظ ولا فى المعنى .

ومثل آخر حين يتحادث تاسو ونتيتاس فيقول :

تاسو : وما ذنبى ؟

نتيتاس : لقد أحسنـــــت ، لكن لى أنا الذنب

أنا أحببت عابثـــاً سادر القلب جافيـاً

يعشق الجـاه والغنى لا يحـــب الغوانيـا

فقد أجابت نتيتاس فى نفس واحد وجواب واحد بوزنين وقافيتين ، وكان فى وسعها أن تجيب بما يأتى فلا تعدو ما أراده شوقى :

. . . لقـد أحسنـــــت ، لى وحـدى أنا الذنب

وفيت لعـابث يلهـو ولنت وقلبـه صلب

وما يصبو لغانيـة ولـكن بالغـنى صب

ومثل ثالث حين تدعو القهرمانة الجوارى إلى الرقص والتغنى بنشيد فرعون:

قمن إلى اللهو يا عذارى وخذن صنجاً وخذن دفا

واهتفن بالشعر والأغانى واقطعن ليل الشباب قصفا

وأنشـدن مع القـوم نشيـد الملك العـالى

بحران وقافيتان فى كلام ممثلة .. وكان من أيسر الأمور أن تلقيه كله من بحر وقافية، فتقول :

قمن إلى اللهو يا عذارى وخذن صنجا وخـذن دفا

واهتفن بالشعر والأغانى واقطعن ليل الشباب قصفاً

وطفن فى الجمع منشدات نشيد فرعون : عاش ألفا

فإن لم يكن فى هذا زيادة سائغة بل واجبة فما فيه إخلال .

ومثل آخر حين يخاطب قمبيز فرعون فيقول له :

رويدك أنت يا فرعون إنى إذا حطمت مصر فمن يقيها ؟
أليست فارس والأرض تحتى وأمرى فى الجنوب وفى الشمال !
وقد غطت فضاء الأرض خيلى وهبت فى السهول وفى الجبال ؟

فلو قال قمبيز فى البيت الأول :

رويدك أنت يا فرعون إنى إذا حطمت مصر فمن أبالى ؟

لا نتظمت القافية ولم يتغير المعنى .

ومثل آخر حين يأتمر قمبيز ورجاله بقتل العجل ، فيقول أحدهم «احرقه» ... فيغضب قمبيز ، لأن العجل يدنس النار ، وهى معبودة عند الفرس ، ويكون حوار على هذا المنوال :

قمبيز : ماذا يقول الناس عنا غدا ألقوا إلى النيران بالفار
قد دنسوها وهى معبودهم من جثة العجل بأقذار
قائد : مولاى ما ذاك فأر بل ألف فأر وفار
آخر : يا سيد الأرض أبشر رأى الوزير أصابا
غدا يقولون بمنفيس تغدت النار بآبيس

وندع هذا الخطأ التاريخى فى هذا الحوار إلى مكانه ، ونكتفى بأن نجعل المتكلم الأخير يقول كلامه من بحر واحد وقافية واحدة ، فإنه كان يستطيع أن يقول :

يا سيد الأرض أبشر رأى الوزير مصيب
غدا يقال تغدى بعجل مصر اللهيب
تطهر العجل فيه والنار طهر عجيب

فيزيد المعنى ويكمل ...

فأما إن كان شوقى حريصاً على سجعة منفيس وآبيس فدونه أربع سجعات بدلا من سجعتين :

مولاى أبشر لك تقديسى عبدك لم ينطق بتدليس
غدا يقولون بمنفيس : تغدت النار بآبيس

ومثل آخر حين يجن قمبيز ويتخيل الأشباح والرؤى فيقول :

ماذا بيا ؟ ماذا بيا ؟ هذا شقيقى برديا

هـذا شقيقى برديا وخنجرى فى صـدره
جئت ــ أخى ــ تجزى أخا ك عن قبيح غـدره

فماذا يجرى لو قال قمبيز بدلا من هذا :

ماذا بيا ؟ ماذا بيا ؟ هـذا شقيقى برديا
وما أرى فى صوره ؟ أخنجرى ؟ يا ويحيا !
جئت أخى تجزى على الغ در أخاك الجانيا ؟

ألا يكون كلامه خيرا وأوفق لتردد المخبولين ، وأسلس من ذلك التخليط ؟

وحسبنا هذا فإنما نريد التمثيل ولا نريد الاستقصاء ولا أن ننوب عن شوقى فى ترقيع نظمه الذى لا ينفعه الترقيع !

تلك ملاحظة أولى :

تقلب الأسماء واختياره يونانية لا مصرية

(٤) والملاحظة الثانية على اضطراب النظم حيرته فى تقليب الأسماء كلما أعياه الوزن واستعصى عليه سبك الاسم الأصيل فيه ، ففانيس تارة فانيس ، وتارة أخرى فنيس ، ومرة ثالثة فانس ، وهكذا كيفما اجتمعت الفاء والنون والسين ، وبسامتيك تارة «أبسما» وتارة أخرى «بساما» ومرة ثالثة «أبساماتيك» .. إلى أشباه ذلك من التلفيقات والتوفيقات . وقل مثل هذا فى آبيس وأبيس ، وأمازس وآمزس وأمازيس ، وقل مثله فى صاو سايس وسابيس ، وتتاوتى ، ونفرت ونفريت ، ونيتناس ونتيت ونتاتس . . ، وقل مثله فى سائر ما فى الرواية من أسماء .

وعلى ذكر الأسماء نلاحظ هنا ــ وإن كان هذا أدخل فى باب التاريخ ــ أن الناظم اختار الأسماء اليونانية وترك المصرية ، مع أنه قد زعم ــ أو زعم له أنصاره ــ أنه ما ألف الرواية إلا لإنصاف الوطنية المصرية من الجالية اليونانية التى تغلغلت يومئذ فى كل شىء ، وجارت على مناصب الدولة ومرافق الأمة ، فشوقى يترك اسم هابى المصرى ويسميه « أبيس» كاسماء اليونان، ويترك اسم خفرع التوراتى واسم « وهاب رع » المصرى ليسمى ذلك الفرعون باسم « أبرياس » اليونانى !! ثم هو يترك اسم أحمس المصرى الذى يعنى الهلال فى لغتهم ليأخذ باسم أمازيس وتشكيلاته الأخرى .. ! ويسمى قمبيز كما سماه الإغريق وكان فى وسعه أن

يسميه كما سماه الفرس «كمبوجة» أو المصريون «كمبائث» .. وليس فعله هذا من إنصاف الوطنية المصرية فى شئ ! بل هو تغليب حديث لليونانية فوق ذلك التغليب القديم .

(هـ) أما الملاحظة الثالثة على النظم فهى كثرة التجوز القبيح فى الفصل والوصل والهمز والتخفيف والمقصور والممدود : فيجرو، ويهزا، ويقرا، ويطا ، وشى ، وتلجئى ويختبا — تجىء عنده فى «واضع يجرؤ ويهزأ ويطأ وشىء وتلجئنى ويختبأ ، والسما والفضا والبها والما ، فى مواضع السماء والفضاء والبهاء والماء ، وأفاعى والشقى فى موضع أفاعىّ والشقّ ، وأمثال ذلك كثيرا جدا على لسان جميع أبطال الرواية .

كثرة التجوز القبيح

(و) والملاحظة الرابعة أن الرواية لم تخل من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها ، ففيها يقول الناظم :

ويرجع الناس لها إلا إمرؤ لا يشعر

أخطاء نحوية وصرفية

والصواب «إلا امرأ» لأن المستثنى منه مذكور والفعل غير منفى .

ويقول فى الحوار بين فرعون ونتيتاس :

فرعون : بخ . بخ . بنت أخى .

نتيتاس : أنت يا قاتلَ — عمى

توهم صاحبنا أن كل منادى ينصب فنصب «قاتل» ولا وجه لنصبه ، إنما يبنى على ما يرفع به لأنه نكرة مقصودة .

ويقول «قزح» ولا تذكر قزح إلا مع قوس .

ويقول :

وترى النيل دما والأ رض جرداء محولة

والموصوف هنا معروف فلا وجه لدخول التاء ، وفى الأساس «أصابهم محل ومحول بضم الميم . وقد أمحلت الأرض وأمحل أهلها ، وبلد وزمان ماحل وممحل ، وعن ابن دريد : أمحل الله الأرض ، وأرض محل وأرضون محل ومحول ، بضم الميم للجمع ، وأمحال . . .» وفى المحيط : «مكان ماحل وأرض محل ومحلة ومحول وممحلة وممحل وممحال» وليس بين هذه الصيغ كلها صيغة «فعولة» .

وقال بلسان نتيتاس وهى تخاطب قبيز ليمنع فانيس الكلام :

علمت حقده على قومى، فلا (١) تدعه ينفث في سم حقده

وجزم « ينفث » خطأ متفق عليه . لأننا لا نستطيع أن نقول « إن لا تدعه ينفث » إذ المعنى نقيض ذلك وهو « إن تدعه ينفث » وإنما يستقيم المعنى إذ يقول : « لا تدعه فهو ينفث سم حقده » أو « لا تدعه وإلا فهو ينفث سم حقده » فيتعين رفع ينفث على هذا التقدير الذى لا تقدير سواه.

(ز) ولم تخل الرواية كذلك من السرقة الظاهرة فى النظم كقول المؤلف :

كذبت على يا ابنة إبرياس حذار حذار من بطشى وفتكى

سرقته وهو مأخوذ بحرفه من قول الشاعر ، يعنى الدنيا :

تقول لكل مستمع إليها : حذار حذار من بطشى وفتكى

أو كقوله : « تعيش مصر وتبقى .

وهى كلمات البهاء زهير مأخوذة من بيته :

تعيش أنت وتبقى أنا الذى مت عشقا

(ح) أضف إلى هذا تبذل اللفظ فى قوله بلسان قيس :

لست بالعجل أبالى وعلى النار أبول

وقوله بلسان أحد المصريين :

ليته بال على نيرانكم بولة تطفى لظاها واللهب

تبذل مرذول فهذا تبذل مرذول كان لشوقى ألف مندوحة عنه ، ولم يكن له موجب من حكاية التاريخ ولا من الذوق ولا من وقع التمثيل ! !

وتلك ملاحظات سريعة على النظم .

وأما الملاحظات على التاريخ والخيال فهى أكثر وأعجب .

١٣ — التاريخ

(ا) للشاعر أن يسد نقص التاريخ فى حيث سكت ، وله أن يفتن فى تصوير حقائق التاريخ ليبعثها جديدة ، ويلبسها ثوب الحياة المشهودة

الشاعر يكمل ويحيى حقائق التاريخ : ولهذا تسمى الرواية تاريخية، ويراد النظم فى الموضوعات المهجورة

---

(١) لو قال شوقى « بإن » بدل « فلا » لأصاب نحويا مع استقامة الوزن والمعنى .

أما أن يتناول الشاعر الحقائق ليمسخها وينافضها فذلك مالا يجوز له بحال ، ولا يغنى فيه عذر ، إلا أن تكون رواية التاريخ معناها أن نشوهه ونكذب عليه ، وذلك معنى من الرواية التاريخية لا يخطر لأحد على بال .

نعم لا يخطر لأحد على بال إلا شوقى وأمثاله ، فان قارىء رواية قمبيز ليرى كأنما هذا الشاعر لم ينظمها إلا ليمسخ تلك الفترة من تاريخ مصر ، فيمحو منها كل ما هو حقيق بالذكر ، ويذكر فيها كل خطأ ولغو وفضول ، وهذا بيان وجيز لبعض تلك الأخطاء .

شخصية قمبيز :

(ب) فاسم الرواية « قمبيز » كما علم القراء ، ومن حق هذه التسمية على المؤلف الصحة والإبداع فى وصف ذلك الرجل الذى سميت باسمه الرواية . فإن لم تكن صحة وإبداع فلا أقل من اجتناب الكذب الصراح فى حيث نطقت الأخبار بغير تلبيس ولا إبهام .

ولقد نطقت الأخبار بأن ملوك الفرس كانوا يشربون الخمر ويتشاورون على أمور الدولة فى مجالس الشراب ، ووصفت الأخبار قمبيز خاصة بأنه كان سكيراً مدمناً ما يكاد يفيق ، حتى شاع عنه ذلك ، وتقول الفرس أن رعشة الإدمان أصابته فى يديه فما يقوى على تسديد سهم إلى غرض ، ومن أجل هذا تناول قوسه وسدد سهمه إلى قلب ابن « بركساسب » سافيه الفتى الجميل فأرداه كما روى هيرودوت ، ليرى الناس أن الخمر لم ترعش يديه ، ولم تزغ عينيه . . . وهذا هو قمبيز فى التاريخ ، فانظر كيف وصفه شوقى على لسان أحد الفارسيين :

لكن نه شغل عن الـــــخمر بطـول غـزوته ! !

ومعروف متواتر أن قمبيز قد مثل بجثة الملك أحمس وأمر بإحراقها فى النار ، ولاحظ هيرودوت ما فى ذلك من مخالفة الشعائر الفارسية عندهم ، لاعتقادهم نجاسة الجثة وقداسة النار ، فعجيب من قمبيز هذا أن يغضب — كما جعله شوقى يغضب — حين اقترح عليه أحد رجاله أن يحرق الثور هابى أو آبيس !! مع أن الثور

من المخلوقات المباركة فى شريعة الفرس: خلقه «أورمزد» إله النور فى غفلة «أهرمان» إله الظلام (١) .

ولقد عرف عن الفرس أنهم كانوا يحرقون الأحياء من الأسرى والمجرمين ، وأنهم هموا بإحراق قارون حين أسره كورش أبو قمبيز ، فلا الشعائر إذن تخالف بإحراق هابى ولا الغضب من ذاك معقول .

وقال شوقى على لسان قمبيز وهو يخاطب العجل :

وهذ خنجرى المـاضى فخـذه بين قرنيـكا

بين قرنيكا ؟ ما كان ينقص صاحبنا إلا أن يجعل قمبيز ينطح العجل برأسه ويفعل ما يفعله كل ذى قرنين .

قتل هابى :

(حـ) ما جنى على شوقى هذه الجناية التاريخية إلا القافية لعنها الله ! وإلا فماذا كان يجرى لو أنه قال « خذ خنجرى » ولم يذكر الموضع الذى طعن فيه العجل ؟ إن ذكر القرنين هنـا هو الذى شط بشوقى عن الحقيقة التاريخية ! فإن المؤرخين ذكروا أن الطعنة كانت فى الفخذ . وزعم الكهان أن قمبيز مات بطعنة فى فخذه على سبيل القصاص الإلهى منه لجرحه العجل « هابى » ، واختلفوا فى الطعنة هل جاءت عن عمد أو عن غير عمد ؟ ولـكنهم لم يذكروا قط أنه طعن بين قرنيه .

---

(١) كان الفرس يعتنقون يومئذ المجوسية الزرادشتية ، وهى ديانة ثنوية تؤمن بإلهين : أحدهما : أورمزد أو هرمز أو يزدان أوأهورا مازدا (أى السيد الحكيم) وهو إله الخير الذى يرمزله بالنور ، والثانى أهرمان أو أهرمن (أى الروح السيىء) وهو إله الشر الذى يرمز له بالظلام ، وتقول الأساطير المجوسية : إن أهريمان خلق من فكرة سيئة مفاجئة خالجت فكر يزدان كما قال المعرى :

قال أناس باطل زعمهم فراقبو الله ولا تزعمن

فـكر يزدان على غـرة فصيغ من تفكيره أهرمن

وقد خلق الأول النور والحق والنظام والجمال وكل المخلوقات النافعة ، وخلق الثانى الظلمة والشرور وكل المخلوقات الضارة ، والأول أعظم من الثانى والحرب بينهما سجال ، ولـكنها لا يباشرانها بنفسيهما بل بأتباعهما ، وستستمر بينهما حتى ينتصر يزدان على أهرمن وحينئذ تقوم القيامة ، وكان المجوس يعتقدون بطهارة العناصر الأربعة النار والهواء والماء والتراب ، ويقدسون النار والماء فلا ينجسونهما بإلقاء القاذورات فيهما (انظر كتاب «الله» للأستاذ العقاد ، و«Life of Zoroaster» للأستاذ Jackson و«تحقيق ما للهند من مقولة» للبيرونى والجزء الأول من «مروج الذهب» للمسعودى ، و«The Development of Metaphysics in Persia» للأستاذ إقبال Iqpal ؟)

ولو كان لشوقى بصيرة مؤرخ وخيال شاعر لعرف أن حكاية قتل العجل بتلك الطعنة خرافة لا تثبت على التمحيص ، وإن وردت بها بعض الروايات ، لأن طعنة فى الفخذ لا تقتل عجلا قوياً ولا غير قوى ، ولم يكن قمبيز جزارا حتى يجهد لقتل فريسته فلا يدعها إلا وهو قاتلها أو مصميها ، فنحن نعلم ما يحتاج إليه الجزارون من الجهد لقتل الثيران ، وليس بالمعقول أن قمبيز قد رضى لنفسه هذه الجزارة ، واستعد للذبح هذا الاستعداد ، فإنما كان يعنيه أن يرى الكهان جهلهم وضلالتهم إذ يعبدون مخلوقا من لحم ودم يصيبه عبده إذا شاء وينفذ فيه السلاح ، وقد ضحك من الكهان حين أسال دم العجل ، وخاطبهم فى هذا المعنى كما جاء فى رواية هيرودوت ، فهو قد عنى ذلك ولم يعن أن يحترف الجزارة إكراما لهابى ! ! على أننا لو فرضنا أن قمبيز طعن العجل بين قرنيه فليس إلا خيال كخيال شوقى العقيم يتصور أن الطعنة فى ذلك المكان الصلب تميت الثيران ، وهى تضرب مرات بالفئوس الضخام فلا تموت ، ولا يستغنى الجزار بعد ذلك عن الإجهاز عليها بالسكين.

ولسنا نكتفى بالفرض هنا ، بل نذكر الفرض المعقول ، ثم نؤيده بالأسانيد .

فى المتحف المصرى باللوفر ألواح تسجل موت العجول المقدسة عثر بها ماريت باشا حين كشف مدافنها فى البدرشين ، ومنها لوحان : أحدهما عن العجل الذى مات فى أيام قمبيز وولد على ما يظهر فى السنة الخامسة والعشرين من حكم أحمس ، والآخر عن العجل الذى مات فى السنة الرابعة لحكم دارا . . . ويرى مسيو دى روجيه صاحب كتاب المأثورات المصرية ، أن هذا هو العجل الذى طعنه قمبيز فى ثورة غضبه . . . وأنه على هذا الاعتبار يكون قد عاش بعد طعنته تلك خمس سنوات على التقريب . »

وهذا ترجيح يزكيه العقل وتمحيص الأخبار وسجلات الآثار ، ولكننا لا نحب أن نأخذ الشاعر بالترجيحات ، ولا نزيد على أن نسأله : من أين جاء بالطعنة بين القرنين ؟ أتراه جاء بها ليبر بعهد قطعه على نفسه لينقض التاريخ حيث استطاع نقضه بغير سبب ولا جدوى ؟ أما كان فى وسع الشاعر أن يرجح حياة هابى وموت قمبيز بعد العدوان عليه ، فيكون هذا أمضى مع سياقه ، وأدل على العبرة التى أطال فى بيانها ، وأبلغ فى إظهار النقمة الإلهية التى تحدث بها كهان المصريين ؟ !

بردية :

(ى) وزعم شوقى أن قمبيز قتل أخاه « بردية » فى ساحة القصر على مشهد من من حراسه وحرمه ، أما الثابت الذى لا اختلاف فيه فهو أنه قتله خفية ولا يعلم بموته أحد من القصر ولا من الشعب ، حتى إن « جوتاما » الشاثر الذى كان يشبه بردية كل الشبه استطاع أن يقنع الشعب ويقنع نساء القصر بأنه هو بردية بن كورش وشقيق قمبيز . فصدقه الجميع ، ودانت له البلاد ، وطارت الرسل إلى قمبيز تنبئه بأن أخاه قد تمرد عليه وجمع أقطار الدولة حوله ، فشك هذا بادىء الأمر فى إخلاص « بركساسب » الذى عهد إليه فى قتل أخيه ، ثم تبين له خطؤه ، فأذاع الحقيقة بين رجاله ، وحامت الريب حول الدعى الثائر ، وتلك رواية لم يشذ عنها أحد من المؤرخين .

وكذلك لم يشذ أحد من المؤرخين عن الجزم بموت قمبيز فى غير مصر وأنه قضى عليه بعد ما تجاوز أرضها إلى البلاد السورية فى طريقه إلى فارس . وإنما شذ شوقى وحده لأنه أمين على يمينه ليفسدن التاريخ وليطعننه بين قرنيه .

أخت قمبيز :

(ه) ولقد غلط شوقى فى أخت قمبيز كما غلط فى أخيه ، فسمى الأخت التى قتلها « أتوسة » ، وأتوسة لم تمت فى حياة قمبيز ، بل عاشت حتى تزوجت « دارا » وولدت له « خشايارش(١) » الأول ، وزينت له أن يوليه العهد بدل ابنه الأكبر لأنه من سلالة كورش العظيم . أما التى قتلها قمبيز فهى أخت أخرى لامته على فتكه بأقربائه ، فرفسها برجله ، فماتت فى أثر هذه الرفسة ، لأنها كانت حاملا فيما زعم رواة الخبر ، ولكن صاحبنا شوقيا نقته شهوة الخطأ ، فسمى الأخت باسمها . وأملى على ضمير قمبيز الشاثر أن يقول :

أتوسة أختى ألا تصفحين ؟ أتوسة زوجى ألا تغفرين ؟

فشغى نفسه بذلك الغلط المستفيض فى أمر قمبيز وأخى قمبيز وأخت قمبيز ! !

وقد فاته فى هذا الحادث أن ينبه إلى بناء قمبيز بأخواته وما فى ذلك من الغرابة

---

(١) يسمى فى العهد القديم « أحشويروش » أو Ahashaverosh كما تكرر فى سفر « أستير ».

والاجتراء على حرمات دينه وعادات بلاده ، ثم ما فيه من دلائل الشذوذ الذى يتسم العلم بأخلاق بطله ، ولو أنه نبه إليه لعلم نظارته أن ذلك المخبول لم يكن ليحفل النار وما أحرقت من « هابى » أو غير « هابى » ... ولكن شوقيا ملهم فى الغلط فلا يحذف اللغو ولا يثبت ما يفيد .

ذلك مجمل عن قمبيز بطل الرواية الأكبر ، أما أبطالها الآخرون فلكل منهم نصيب على قدره من الأخطاء والأكاذيب .

فهذا بساماتيك يقتله شوقى بعد غزوة قمبيز للنوبة وهو قد قتل قبل تلك الغزوة ، وذلك أحمس ينقل خبر موته إلى قمبيز وهو فى فارس يتأهب لغزو الديار المصرية ، أما الرواية التى ذكرها هيرودوت وجراه عليها المؤرخون فهى أن قمبيز لم يعلم بموته إلا بعد إشرافه على الفرمة !!

(و) فانيس اليونانى:

وذلك فانيس اليونانى يجعله شوقى

أمـــير الجيش فى منف و أسوان و سايس

وما كان للجيش المصرى أمير واحد فى جميع هذه البلاد ، وما كان فانيس إلا ضابطا من الضباط لم يبلغ مرتبة الإمارة ، والمؤلف يميته وهو يقول :

قد خنت مصر وخنت ساداتى بها لكننى ما خنت قط بلادى

وهذا كذب ، لأن فانيس خان جند اليونان حين خان مصر ، ولهذا أبغضوه ووغرت صدورهم عليه ، ثم هو يميته جاهلا بمصير أولاده ، فيلقى على لسانه — وهو يلفظ الروح — هذا البيت :

يونان تغفر لى ، وآلهتى بها سهرت عيونهم على أولادى .

ثم يجعل مصريا يقول :

فانيس لا علم له بما جرى قد قتلوا أولاده وما درى

كذلك يزعم شوقى عدو التاريخ . أما الذى رواه هيرودوت — وهو وفانيس من بلدة واحدة فى آسيا الصغرى — فيناقض ذلك كل المناقضة ، لأنه روى أن

الجنود قتلت أولاد فانيس أمام عينيه ، ومزجت دماءهم بالخمر ، وشربتها فى وسط الميدان ، ولو كان الجنود الوطنيون هم أصحاب هذه الفعلة لجاز أن يقول قائل : إن شوقيا تعمد الإغضاء عن الحقيقة ليرحض اللوثة عن سمعة بلده وتاريخه ، ولكن هيرودوت نسب الفعلة إلى الجنود الأجنبية المرتزقة ولم ينسبها إلى المصريين .

(ز) الضحايا البشرية :

والتاريخ يروى عن اليونان نظائر لهذه الفعلة فى حروبهم مع الأجانب ، فقد ذبحوا ثلاثة من الأسرى الفرس قبل موقعة سلاميس ، وصنعوا بهم مثل ما صنع جنودهم المرتزقة بأبناء فانيس ، فكان أولى بشوقى أن يذكر الحقيقة ولا يناقضها ، لأنه ينصف بذلك الوطنية المصرية من طغيان الدخيل . بل كان أولى به أن ينزه سمعة المصريين عن عار الضحايا البشرية التى نزهتهم عنها الحقيقة .

فليس فى الآثار المصرية إشارة واحدة إلى التضحية البشرية فى شعائر مصر القديمة ، وكل ما قيل عن التضحية بالبنات فى موسم الفيضان أساطير لا سند لها من الآثار ، ولا من أقوال المؤرخين الأقدمين(١) . فإن أول من أشار إلى هذه الأسطورة هو « المقريزى » الذى تلقفها من الأفواه فى مصر ، ولم يرجع بها إلى سند صحيح ، وأين عهد المقريزى من عهد قدماء المصريين (٢) ؟ لا بل قد نفى هيرودوت عن المصريين وصمة التضحية البشرية نفيا جازما خلال سرده لحكاية هرقل ، وما تقوله عنها الإغريق الأولون .

ويرحض هذه الوصمة عنهم أنهم كانوا يدفنون مع كبار الموتى تماثيل يرمزون بها إلى الخدم والأتباع ، تحرجا من قتل الخدم والأتباع على أجداث الملوك والأمراء

---

(١) راجع للاستاذ العقاد « سعد زغلول » ص ٢٨ ؛ و« عبقرية عمر » : فصل « عمر والحكومة المصرية » وكتاب « عمرو بن العاص » : فصل « فتح مصر »

(٢) رواها أيضا ابن الفقيه فى كتابه (البلدان) ص ٦٥ ، ويندر أن يخلو كتاب تاريخ عربى قديم يتعرض لفتح عمرو بن العاص لمصر من ذكر هذه الأسطورة وقضائه عليها بإشارة عمر ابن الخطاب ، وكذلك إحراقه مكتبة الاسكندرية بإشارته أيضا ، وكلتاهما أكذوبة ضخمة ، أول من شهرها مؤرخون عرب تلقفوا أخبار مصر قبلهم من أفواه العامة دون اعتماد على سندرجيح (راجع فى تفنيدهما « عبقرية عمر » للأستاذ العقاد فصل « ثقافة عمر » وكتابه « عمرو ابن العاص » فصل « فتح مصر » و« فتح العرب لمصر » للأستاذ بلر وترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد الفصل : ٢٥ وآخر ٢٦)

كما كان يفعل غيرهم من أمم العصور الغابرة ، فاجدر بالمصرى أن يفخر بهذه الحضارة العالية ، ولا يتطوع — على الأقل — لتلويث تاريخه بتهمة لم يقم عليها دليل ولا شبه دليل ! لكن شوقيا موكل بقلب الحقائق وتشويه المفاخر ، من حيث يزعم أنه يشيد بالمفاخر ويدحض الأباطيل ، ولهذا أجرى على لسان نتيتاس ذكر الخرافة المكذوبة عن عروس النيل ، وجعلها تقول :

« كل عام صبية من بنات الـ شعب تختار للفداء فتفدى
تنزل النيل غير عائفة ما فيه للموت من حياض وورد
سمحت بالحياة فى غير سأم وسخت بالشباب فى غير زهد »

وما كان المصريون يلقون فى نهرهم إلا عروسا من الطين ، ولا كانوا يسمونها عروس النيل إلا لأنهم كانوا يحسبون النيل زوجا لأرض مصر ، يزورها العام بعد العام ، فهم يرمزون للأرض كلها بدمية من طينها يحتفلون بزفافها إليه ، وهذه هى القصة لاقسوة فيها ولا وحشية ولا شناعة ، فانظر إلى الصديق الجاهل كيف يصنع بمن يواليه . . إن صح أنه يواليه .

(ح) شجاعة المصريين :

وانساق شوقى مغمض العينين مع مؤرخى الإغريق ، فافترى على شجاعة المصريين فى ذلك العصر افتراء تنفيه جميع الوقائع التى سجلها أولئك المؤرخون ، وفات خياله المظلم الكليل أن يدرك موضع الهوى والغرض من نفوس اليونان الأقدمين ، إذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين ، فقد كان ضلعهم ظاهرا مع « الملوك الفراعنة » المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية ، فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية ، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ، ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير معابدهم فى بلادهم ، وإقامة الهياكل لهم فى جوار المعابد المصرية ، وكان أبناء البلاد يمقتون فراعنتهم من جراء هذا ، ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر ، وينعتون هؤلاء بأقبح النعوت ، ويحرمون الأكل من أيديهم ، والتنزل إلى معاشرتهم ، ويقدحون فى شجاعتهم وأمانتهم بكل لسان .

فاذا كان ينتظر شوقى من اليونان أن يقولوا عن أنفسهم وعن أبناء البلاد الناقمين

عليهم ؟ أكان ينتظر منهم أن يتهموا أبناء وطنهم بالفضول والتطفل ، ويعترفوا للمصريين بشجاعة تغنيهم عن الجند الدخيل ؟ أكان ينتظر منهم أن يكرهوا « وهاب رع » وأحمس ومن سبقهما كما كان المصريون يكرهونهم ويتبرمون بحكمهم؟ وإذا لم يفعل اليونان ذلك فماذا تراهم يقولون إلا إن المصريين ضعاف، وإنهم هم حماة الديار ؟ وإن الفراعنة على صواب حين يميزون بين هؤلاء وهؤلاء ؟

على أن استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لأنهم كانوا يستخدمون فى جيش فارس وساموس فى هذه الفترة بعينها ، فليس من الإنصاف أن يتخذ وجودهم فى الجيش المصرى برهاناً على نقص فى كفاءة المصريين للجندية والقتال.

فكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فى ذلك العهد إنما كان حديث مو تور ، ودفاع دخيل ممقوت ، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفطنة ؛ وله إلمام بمواقع الأغراض والدعايات (١) . فما كان يجمل بمؤرخ باحث — ولا بمصرى على الخصوص — أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلا على جبن آبائه الغابرين ، ولو صفر التاريخ من الأدلة النافية لهذه الفرية لكان للمصرى شبه عذر فى الإصغاء إليها ، والاهتمام بشأنها . أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها فلن ينساق مع أكاذيب اليونان الأقدمين إلا رجل تعوزه الغيرة أو يجنح به الغرض إلى تصديق تلك الأكاذيب ، وقد يكون شوقى صاحب غرض فى هذا ، لأن فيه عرقا يمت به إلى اليونان كما يقول (٢)

---

(١) راجع الفصلين الأولين (الطبيعة المصرية فى أوهام الناس) و(الطبيعة المصرية فى حقيقتها) من كتاب (سعد زغلول) للعقاد وفى أولهما بيان لكل التهم التى وصمت بها الطبيعة المصرية وتفنيدها مع بيان أسبابها . وفى ثانيهما بيانها على حقيقتها مميزة من غيرها كعادة العقاد فى تحديداته .

(٢) الفرضان كلاهما جائزان : لأن شوقى رحمه الله كان ضعيف الفكر والخيال ، ثم هو ضعيف الثقافة كما تدل على ذلك آثاره وأخباره ، ولنشأته ومكانته وأهله فى بيئته التركية الحاكمة وقد كان غيورا على تركيته معتزا بها لأنها زلفاه عند الطبقة الحاكمة التى عاش بها ولها وكان بوقها طوال حياته ، وكان بعيدا عن الشعب فى حياته وخوالج نفسه وضميره ونزعته هنا تسوغ الحكم التركى لمصر ولا سيما فى إبان طموح الشعب إلى الاستقلال وصرخته « مصر للمصريين » وقد جنت هذه النزعة العوجاء فى شوقى على نفسه وشعره .

وإلى القراء بعض الدلائل التي حفل بها التاريخ ، حتى في رواية أولئك المؤرخين المغرضين :

فمنها أن الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة في كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة إلى فرد راية ، فلما خطر لـ « وهاب رع » أن يشد أزر « ذكران » الزعيم الليبي في حربه للمستعمرة الإغريقية ببرقة — رأى من الحكمة ألا يرسل في هذه الغزوة جنوده المرتزقة ، مخافة أن يتمردوا ، فلا تطيب نفوسهم لحرب أبناء وطنهم وعلم أن الفرقة المصرية تبغض الإغريق ، وتصدق في قتالهم ، فأرسلها إلى الحدود ، ولكن حسابه ما لبث أن التوى عليه ، فكرت الفرقة المصرية راجعة إلى حربه ، حين أحست اجتماع الكلمة ووحدة القيادة ، فجزع « وهاب رع » ، واستعان بجميع جنوده الإغريق ، وخرج بهم لقتال الثائرين ، فهزمه هؤلاء شر هزيمة ، ورفعوا قائدهم أحمس إلى العرش شريكا لذلك لفرعون ، ولولا أن علو أحمس على زملائه قد أثار في نفوسهم حسد الند للند ، لخاف اجتماع كلمتهم عليه — لما عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنية إلى مشايعة الأجانب والمرتزقين .

هذا ما حدث في الوقعة الأولى بين المصريين والإغريق ، فلما التقى الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم في المرتين للمصريين ، إلا أن التعصب الأعمى يسول للمؤرخين المغرضين أن يحاولوا إقناعنا بالنقيضين ، للإشادة ببسالة اليونان ، والتشهير بضعف مراس المصريين . فلما أرسل « وهاب رع » معظم جيشه الوطني إلى قتال الإغريق ببرقة قال أولئك المؤرخون : إن الإغريق أبادوه إلا قليلا لا يحسب لها حساب ، ومن ثم نعلم أن الجيش الوطني قد مُني بخسارة لا تعوض ، وآب أضعف وأخوف مما ذهب ، لكنهم يذكرون الحرب بين المرتزقة والجند الوطني بعد وقعة برقة ، فيدعون أن الوطنيين إنما تغلبوا على خصومهم بكثرة العدد ، لا بالبأس والشجاعة . . . فهنا هم كثيرون ، وهناك هم قليل ، وليس هذا الادعاء المتناقض إلا من تعصب اليونان لليونان ، وكراهة المنافس للمنافس . وليس ترديده في العصور المتأخرة إلا تعصباً جديداً من الأوربيين المحدثين لأولئك الأوربيين الغابرين .

وأدل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها أن كورش مؤسس دولة الفرس

وفاتح الأمصار شرقا وغربا قد تهيب أن يقدم على غزوها ، فتركها وشأنها كما قال مسيو جستاف جكفيه ، فى كتابه « تاريخ الحضارة المصرية » مع أن كورش كان يعلم اشتراكها فى الحلف الذى تألب عليه من البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين ، فحارب بابل وليدية ، وسوّف فى محاربة مصر إلى أن مات .

ومن الدلائل على كذب الأقاويل عن هذه الفترة أن قمبيز — مع تهجمه وفتوته — لم يجسر على غزو مصر إلا بعد أن استوثق من خيانة فانيس اليونانى ، واطلع منه على أسرار الهجوم ، وفوض إليه رشوة البدو الضاربين فى صحراء سيناء (١) ثم لم يكفه هذا حتى ألب الآسيويين على المصريين ، وأعد لهم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان ، وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد غير قليل ، وأسلحة لا عهد لهم بها فى ذلك الزمان ؛ وأسطولا لبو الكرات الطاغية الساموسى مال إلى فارس بعد أن كان فى حلف المصريين .

ومن الحيل التى لجأ إليها قمبيز للغلبة على المصريين بإرشاد فانيس اليونانى ، أنه رفع الحيوانات الصغيرة التى يقدسونها ، ويحرمون إيذاءها — على دروع جنوده ، فتورع المصريون أن يقذفوها بسهامهم ، وآثروا الهزيمة على الجحود وعصيان الدين . ولا ندرى لماذا أغفل شوقى هذه القصة ولم يشر إليها بحرف وهى — كما يرى القارىء — مرتع للشعر ، ومسرح للخيال ، وفيها ما يخفف عار الهزيمة فيجعلها ضرباً من التقوى الدينية ، ويمحو عنها الجبن وفتور الوطنية . ثم هى ليست حقيرة السند ، مخترعة من الأساطير ، لأن بوليمنس أثبتها فى كتاب التعبئة والحيل الحربية ، الذى ألفه للعاهل الفيلسوف « ماركس أورليوس » فإن صح أن شوقياً تحرى فترة الفتح الفارسى ، ليمحو عاره — فهذه القصة ترضى خيال الشاعر ، وبحث المؤرخ ، وعبرة الحكيم ، وهى وما سبقها من الدلائل كفيلة بجلاء الوصمة ، وإلباس الخذلان لباس الشرف والعزة ، وهى كذلك أجدى وأبلغ فى الإقناع من تلك الجعجعة الخاوية التى ملأ بها أفواه المصريين ، ولم تكن لتدل إلا على السخف والغباء .

---

(١) كما فعل الإنجليز عند دخولهم مصر ، فلم يتمكنوا من الانتصار على الجيش المصرى بقيادة عرابى ، إلا متسللين إليه فى الظلام بعد أن رشوا « بدو » إقليم الشرقية ، فوق ما رشوا به بعض الخونة من الأوربيين وغيرهم ولولا ذلك لكان فتح مصر من أعوص المغامرات وأفدحها خسارة .

ولقد غلبت مصر ، وملكها الفرس ، وما انكسرت قلوب أهلها ، ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوى المعتز ببأسه وسلطانه ، فما برحوا يتحينون الفرص ، ويثبون على غالبيهم مرة بعد مرة ، حتى قلق « دار الأول » وحضر إلى مصر ، وقتل « أرياند » والى الفرس الذى كان يتغطرس على المصريين ؛ ويستفزهم إلى الغضب والثورة ، وبالغ فى تمليق الشعب والكهان ، حتى بنى معبدا لآمون ، واشترك فى موكب الحزن على « هابى » واكتتب بما يعدل اثنين أو ثلاثة وعشرين ألف جنيه من نقود هذه الأيام ، لمن يعثر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة فى أسفار الكهان .

وظهر شمم الكهان المصريين على أتمه يوم اقترح «دارا» عليهم أن يقيموا تمثاله إلى جانب تمثال «رعمسو الثانى» فى معبد « فتاح » فلم يبال أحدهم أن يجبهه بتفضيل « رعمسو » عليه ، وأن يقول له فى غير مواربة ولا دهان : إنك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه ، فتلقى الجواب كاظما وقال فى حلم وأناة : « سأفعل كما فعل إذا عشت كما عاش » وعدل عن إقامة التمثال إذعاناً لكبرياء رعاياه المغلوبين .

ثم استرجعت مصر إستقلالها ، وكافحت حوله كفاح المستميت ، ولا محل هنا لتفصيل الوقائع التالية ، لأنها خارجة عما نحن فيه ، فالحوادث التى انتقلت إلينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى ما تخلل رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب على المؤرخ المصرى أن يفطن إلى هذا ولا يجارى الأحاديث المشاعة التى لن تخلو من الهوى ، وان ترتكز إلى سند صحيح .

على أن اليونان لم يكونوا بالمغرضين وحدهم فى تقرير تاريخ تلك الأيام ، لما هو معلوم من المنافسة بينهم وبين الوطنيين ، فإن هناك شعباً آخر كان يخامره الغرض فى تقرير ذلك التاريخ لأسباب تشبه تلك الأسباب ، ذلك هو شعب إسرائيل .

لقد كان الإسرائيليون ساخطين على مصر لأنها قهرتهم قديماً وسخرتهم فى بلادها تسخير العبيد ، فما زالوا ينطوون لها على ضغن ، ويتمنون لها الهزيمة والسقوط ، ثم نشبت الحرب بين البابليين وبنى إسرائيل ، ففزع هؤلاء إلى فرعون وأبطأ فرعون فى إسعافهم ، فهزمهم البابليون ، وحملوهم مأسورين إلى أرض بابل فصب كهان إسرائيل غضبهم على مصر ، وأنذروها بمثل هذا المصير ، وجاء

كورش مؤسس الدولة الفارسية ، فقهر البابليين ، وسمح لبعض أسباط بنى إسرائيل بالقفول إلى أرضهم ، فحفظوا له هذا الجميل ، وكان سبباً جديداً لميلهم مع الفرس وتمنيهم الهزيمة لعدوتهم مصر ، فالأحاديث التى تحدرت الينا من ناحية بنى إسرائيل عن فترة الغزوة الفارسية كانت من ثم عرضة للمبالغة والتشويه وسوء الشهادة للمصريين ، إذ كان فى ذلك إرضاء للثأر القـــديم ، وتصديق للنبوءات المأثورة ، وهذه حقيقة لا يصح نسيانها فى تمحيص أخبار تلك الفترة المثقلة بذكريات العصبية والدين .

ثم جاء الأوربيون المتأخرون ، فوافقهم أن يسجلوا الضعف والجبن على الشرق ، ويؤثروا أسلافهم فى أوربا بمناقب الشجاعة والإقدام والتغلب والسيادة ، ووجدوا فى ذلك ذريعة إلى تسويغ الاستعمار ، وتوهين عزائم الأمم المغلوبة ، وإقناعها بما قسم لها من مصير الذلة والخضوع ، فقرروه وأبدأوا وأعادوا فيه ، وحاولوا أن يبثوه فى قلوب الناشئة الشرقية ، لتنمو وتكبر وهى على هذه العقيدة المميتة ، ثم زادوا فقرروا أن مصر لم تستقل قط بعد الغزوة الفارسية ، ولم يحكمها أحد من أبنائها ، فهى بعد اليوم لن تستقل ، ولن يحكمها أحد من أولئك الأبناء !! ولو قالوا مثل ذلك عن إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو أية دولة أخرى لأصابوا من حيث لم يصيبوا فى كلامهم عن هذه البلاد ، فكل هذه الدول لم تعرف لها أسرة مالكة من صميم أهلها منذ زمن طويل ، ومزية مصر أنها كانت تحكم لحساب أهلها وتصبغ حكامها بصبغتها فى الدين والشعائر والألقاب ، حتى « قمبيز » انتحل فيها اسما من أسماء الفراعنة واتخذ له أسرة معدودة من أسراتهم المتعاقبة ، وحتى الرومان الطغاة سادة الأرض قد دانوا بالمسيحية يوم نشب النزاع بين مصر وبينهم فكانوا هم فى جانب الديانة القديمة ، وكانت مصر فى جانب الدين الجديد .

فمصر والدول الأوربية سواء فى قيام حكام فيهن جميعا من غير أبناء البلاد ، وقد تكون مصر خيرا منهن جميعا ، لأنها لم تحسب قط سلعة « خاصة » كما حسبت أمم أوروبية كثيرة فى صفات الزواج والميراث .

ولو غير شوقى تعرض لفترة الغزوة الفارسية لكان له فى هذه الحقائق مجال أى مجال ، لإنصاف الوطنية المصرية ، واستخراج الجوهرة الصافية من خلال ذلك الركام المهيل ، ولكنها فترة منكودة الحظ ، فمن نكد حظها أنها وقعت فى يد هذا المؤلف

الذى لا خطر عنده للوطنية ، ولا للتاريخ ، ولا للخيال !

على أن الذى يضحكك ملء شدقيك من شوقى أن تراه يتعالم بالروايات التاريخية ويخوض بينها بالترجيح والتعليل ، كأنه يميزها عن دراسة ومعرفة وعناية نزيهة ، وهو — علم الله — ما ألم منها بكثير ولا قليل ، إلا خطف المتعجل الجاهل الذى لا يصبر على دراسة ، فلما سأله مندوب مجلة « الصباح » الأسبوعية : « أصحيح أن نتيتاس كانت زوج كورش أبى قمبيز ولم تكن زوجة قمبيز ؟ » لم يتحرج شوقى أن يخبطها خبط عشواء ، ويلقى هذا الجواب الذى نتقله بنصه ، لأنه أضحوكة الأضاحيك .

قال وقاه الله شر التاريخ ووقى التاريخ شره : « الذى قال ذلك هو الدكتور إيبر . . . وقد كتبها متأثرا بالحضارة اليونانية ، شأنه فى ذلك شأن كل المؤرخين الإفرنج الذى يتكئون فيما يؤرخون على الحضارة اليونانية ، غير عابئين مطلقاً بالحضارة المصرية فى ذلك العهد ، وأنا المصرى ما كان لى أن أسلك الطريق الذى سلكوه فى الكتابة عن هذه الحقبة من الزمن ، وإنما كان على أن أعتمد على الحضارة المصرية ، وأن أسمو بالناحية الوطنية ، بجعلها فى مستوى أرفع من النواحى الأخرى ، ولقد فعلت !! »

والله صحيح ! لقد فعلتها جزاك الله بما فعلت يا شيخ ! ومن غيرك يستطيع أن يخبطها هذه الخبطة التى تربى أكاذيبها على الكلمات فيها الحروف ؟ ومن غيرك يستطيع أن يزعم فى عبثه وتخليطه أن « إيبر » هو صاحب تلك الأحدوثة ، وأنها إغريقية تحجف بالمصريين ؟ تقولها أنت ، لأنك آليت لتمثلن بالتاريخ شر تمثيل .. أما التاريخ فله كلام غير هذا الكلام ، بل نقيض هذا الكلام . فلا إيبر هو صاحب تلك الأحدوثة التى زجت أن « نتيتاس » خطبت لكورش ولم تخطب لقمبيز ، ولا هذه الأحدوثة إغريقية تحجف بسمعة المصريين .

أما « إيبر » ياهذا فتلك قصته « الأميرة المصرية » مترجمة إلى العربية والإنجليزية والفرنسية ، وكلها دائرة على الأحدوثة الأخرى التى تقول إن « نتيتاس » خطبت لقمبيز ، لا لكورش أبيه .

وأما الأحدوثة التى زعمتها إغريقية فما هى إلا دعاية مصرية صميمة ، روجها

المصريون لإرضاء كبريائهم ، وتعزيز ثقتهم بأنفسهم ، ونقض ذلة الأسر عن كواهلهم ، فقالوا: إن قمبيز لم يكن فارسيا ملك مصر ، ولكنه كان مصريا ملك فارس !! وإنه لم يطالب بعرش مصر إلا لأنه كان ابن الأميرة المصرية نتيتا التى خطبها أبوه كورش ، فهو أحق بالعرش من أحمس غاصب الملك ، ومنافس الفرعون «وهاب رع»!! وعلى هذا تكون — يا صاح — قد عكست الأمر ، فرفضت الدعاية الوطنية وتشبثت بالأحدوثة الأجنبية !!

ثم أنت تؤاخذ « إيبر » ولا مؤاخذة على الرجل فى شىء من هذا ، وإنما أشار إلى الأحدوثة — من المتأخرين المعروفين عندنا — ثلاثة هم: ماسبرو مؤرخ «الأمم الشرقية» وجستاف جكفيه صاحب كتاب « الحضارة المصرية » وبترى الأثرى الكبير . والأول والثالث قد ذكرا سبب دعاية المصريين بهذه الأحدوثة ، والثانى ذكرها وحدها ، ولم يذكر الأحدوثة الأخرى ولا أشار إليها .

وأمثال هذه الأحاديث على كل حال من الأساطير ، وليست من التاريخ ، ولكنها قد تستحب فى فكاهات القصص والتمثيل . ويطول بنا المقال — يطول بنا جدا — لو أحصينا الغلط المبثوث هنا وهناك أثناء الرواية فى الأسماء ، وترتيب الحوادث ، ووصف العادات ، ولكن من يلوم المؤلف على مثل هذا الغلط كمن يلوم الكافر على ترك الحج والصيام . فبعد الكبائر لا ملام على الصغائر ! وحسبنا ما تقدم دليلا سيئا على ما فى هذه القمبيزية من خلط ذريع !!

٤ — الخيال

(أ) لخيال الشاعر عمل جليل فى الرويات التاريخية . لأن حوادث هذه الروايات أشبه شىء بالهيكل العظمى الذى يحتاج إلى الخيال الخالق المبتكر ، وبصيرة مطموسة ليكسوه لحما ، ويجرى فيه دما ، ويبعث فى أوصاله روح حياة ، فإذا بحثت فى رواية قمبيز عن أثر لمثل هذا الخيال — فما أنت بواجده ولا مستطيع أن تقترض وجوده ، ولن تجد هناك إلا جسما حيا جرده شوقى فآض فى يديه هيكلا عظميا لاحراك به ، إلا كحراك الآلات الصماء .

خيال عقيم

ذلك أن فترة الغزو والفارسى كانت من أعمر الفترات فى تاريخ مصر بالحوادث الشائقة ، والمواقف الروائية ، والعبر الناطقة ، فهى تملأ وطاب الشاعر لو كان على حظ من بديهة الخيال ، وقدرة التصوير والابتكار ، وتتزاحم فيها الشخصيات المسرحية ، فينعم فيها الشاعر بزاد طيب يمتع به النظارة والقراء .

فما الذى صنعه شوقى بتلك الفترة ؟ لقد كان مطلوباً منه أن يكسوها لحما إن وجدها عارية ، فعراها هو من اللحم وألقاها عظمة بالية . ! . وكان هو بمثابة « قبيز » آخر أغار عليها بخياله المنكوس ، فأعمل فيها معول التخريب والتجريد ، ونشر ريح الموت فى كل ما لمسه ورآه .

إغفاله صولون

(ب) فمن شخصيات تلك الفترة الواضحة فى تاريخ العالم كله شخصية صولون الحكيم المشهور والمشترع الكبير ، زار مصر على عهد « أحمس » ودرس حكمتها ، واقتبس من شريعتها ، ولا سيما قانون « التشرد » والصناعات ، فما كان أحوج المسرح إلى ظهور هذه الشخصية !! وما أقدر المؤلف — لو كان شاعرا حقا — أن يجمع فى دور صولون كلمات العظمة والحكمة ، ويجرى على لسانه خلاصة التشريع فى العصر القديم ، ويبث فى منطقه اعترافه بما استفاده اليونان من مصر فى الدين ، والنسك ، والعلم ، والأخلاق ؟ ! أو ما كان أجدر هذه الحقيقة أن تذكر فى رواية يقال إنها وضعت لإعلاء قدر الوطنية المصرية ، وإظهار فضلها على اليونان وعلى العالمين !

إغفاله قارون

(ج) ومن شخصيات تلك الفترة قارون ملك الليديين ، وصديق الفلاسفة ، ومضرب الأمثال بالغنى ، ولاسيما فى الآداب العربية ، خلعه الفرس وأسروه ، وأوشكوا أن يحرقوه ، ثم أطلقوه ، فأخلد إلى الزهد ، وقنع بحظه ، ووجد السعادة فى القناعة ، بعد أن عز عليه طلابها بالمال والسلطان . ثم زار مصر مع الفرس ، وتابع مصارع الأمم ، وشهد الدول كيف تدول وعرف السطوة فى نفسه وفى غيره كيف تحول وتزول ، أفتوجد هذه الشخصية بين يدى شاعر يؤلف الروايات التمثيلية عن عصره ، فيرمى بها وراء الستار ، ولا يبرزها مرة ، لتسمع الدنيا من فمها عبرة صاحب الكنوز ومضرب الأمثال فى جميع العصور ؟ ألم تكن لقارون كلمة منتظرة فى زمن ران فيه حب المال على كثير من النفوس ؛ وقال شوقى عن نعيمه إنه « قتل حمية الفتيان » ؟

بلى ، قد كانت له كلمة بل كلمات ، ولكن أين شوقى وعبر التاريخ ؟ وأين شوقى وإلهام الخيال ؟ !

(د) ومن حوادث ذلك العصر الرائعة غزوة الفرس للصحراء اللوبية التى تبدد فيها خمسون ألف إنسان ، ثم غزوتهم للنوبة التى هلك فيها الجيش الفارسى جوعا

موكب المحمل المقدس (تصوير دجان)

صورة لجندى مصرى

صورة أخرى لجندى مصرى

وعطشا، واتفقوا آخر الأمر أن يقترعوا على واحد من كل عشرة يأكلونه بعد أن أكلوا العشب ، ثم فقدوا العشب فى سهوب الصحراء ... أى تمهيد لجنون قمبيز أفجع من هذا التمهيد ، وأحرى أن يقنع الناس باحتمال هذا الجنون ؟ ثم كيف يستغنى الشاعر عن شرح هذه الضربة من ضربات القضاء ، وهى فى رواية فاجعة لاغنى فيها عن شرح غضب القضاء وغلبة الأرباب ؟

لقد كان فى التاريخ تمهيدان واجبان لجنون قمبيز أحدهما هذه الكارثة والآخر إدمانه السكر وتماديه فى الشهوات ، فأما إدمانه السكر فقد خبط فيه شوقى إحدى خبطاته العشواء ، فعصم قمبيز من الخمر ، لاشتغاله بالغزو عنها كما قال ! وأما كارثة النوبة فقد رمى بها شوقى إلى ماوراء الستار ، ورمى معها بكارثة الصحراء اللوبية على طول الذراع ... وقد يقال : « إنه خشى الإطالة » فنقول : إن الرواية لم تزد على فصول ثلاثة ، فما ضره لو صارت أربعة أوخمسة ؟ وإن كان لا بد من ثلاثة فصول لا أكثر — فهل كانت تضيق هذه الفصول الثلاثة باثنين من الفرس أو المصريين يتحاوران ، ويحكيان ما انتاب قمبيز بعد غزوة النوبة وغزوة الصحراء ؟ أليس هذا خليقا أن يفسر لنا هجومه على « هابى » ثم جنونه ، ثم مطاردة الآلهة المصرية إياه من البدء إلى الختام ؟

إهماله غزوة الصحراء وغزوة النوبة

وعلى ذكر النوبة ، نعجب كيف تخطى المؤلف ذلك الحوار الشائق الذى دار بين بعثة فارس وملك النوبة ؟ وكيف اكتفى من هذه الغزوة كلها بعرض الأسرى النوبيين على المسرح ، والعفو عنهم على أثر ذلك ! فإن حديث ملك النوبة مع بعثة فارس لحديث مسرحى ، لا يذهل عنه كاتب رواية تمثيلية ، ولا يعذر فى تركه إلا أن يكون جاهلا به أو ساهيا عنه ، وهو جهل فاضح وسهو معيب ، لا يليقان بمن يتصدى للكتابة فى تاريخ عصر الرواية وأهل زمانها .

وخلاصة الخبر أن البعثة الفارسية حملت إلى ملك النوبة فيما حملت إليه من الهدايا ثياباً مصبغة ، فقال لهم قبل أن ينظر فى هداياهم : « ما جئتم أصدقاء لنا وإنما جئتم عيونا علينا . . » ثم سألهم عن الثياب : كيف يصنعونها فوصفوا له نسجها وصبغها ، فابتسم وقال : « ثياب غشاشة من أمة غشاشين ! » ثم تناول قوساً كبيرة وأغرق فى نزعها ، وناولهم إياها وهو يقول : « إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه فأقدموا على قتالنا » وعادت البعثة ، فقيل : إن قمبيز عجز عن علاج تلك القوس ، وإن بردية أخاه رمى عنها السهم إلى أبعد مرماه ، فكان ذلك

سبب حنقه عليه وقتله إياه ، فالمنظر كله من أمتع المناظر على المسرح ، وعرضه على النظارة لم يكن من الصعوبة فى شىء . فاعجب كيف أغفله شوقى ! ثم اعجب له كيف أنطق قمبيز بالعفو عن أسرى الغزوة النوبية ، وهى علة خيبته وجنونه ! وقل معنا بعد ذلك : ياله من توفيق عجيب فى الغفلة والتشويه !! ومما يحفظ من سيرة قمبيز أنه سلخ جلد أحد القضاة الفرس وهو فى قيد الحياة ، لخيانته أمانة القضاء ، وهذا قبل أن يطبق عليه الجنون ، وتشتد عليه وطأة المرض ... فكان قصاصه هذا عدلا أقبح من الظلم ، وبادرة من الهوس الجامح تدل على ما بعدها .

ويحفظ له أيضاً أنه استوزر مصرياً من أقرباء أحمس وبساماتك الثالث ، كان أميراً للأسطول فى عهدهما ، وكان اسمه «أزاهور رسنيت» وهذا الأمير هو صاحب التمثال الذى عرف الأثريون منه بعض سيرة قمبيز فى مصر ، وبعض عنايته بها كل الأرباب المقدسة بإرشاد من « أزاهور رسنيت» صاحب التمثال ، وقد استمال قمبيز فاتخذ اسم « مسوت رع » ليتقرب إلى المصريين ، وينتظم عندهم فى عداد الفراعنة ، والتمثال المذكور هو الوثيقة الوحيدة التى بقيت من عصر الغزوة الفارسية ، وتضمنت عن سيرة قمبيز شيئاً من التفصيل ، ففى الرواية موضع لكل عمل من هذه الأعمال ، يدل على شخصية «البطل» وتاريخ الفترة ، لو تنبه إليه المؤلف وكلف نفسه قليلا من البحث والمراجعة ، ولم يلق كل باله إلى أساليب الدعاية الخفية التى شب عليها وشاب .

أحمس

(هـ) أما أحمس فهو أظرف شخصية فى عصر الرواية ، وجناية شوقى عليه أكبر الجنايات ، فالتاريخ يحفظ له أساطير لطيفة ، وملحا جميلة ، هى من أخص صفات المصرى فى جميع الأزمان ، فقد كان أحمس فى معظم صفاته مثل المصرى الشجاع العصامى الأريب المفراح ، وكان مذهبه « أن النكتة لا تعذر » كمذهب جميع المصريين فى القديم والحديث . فكان لا يعفى نفسه ولا وزراءه ولا أهل بيته من النكتة إذا بدرت إلى لسانه ، وقد لامه بعض صحبه على طربه ومزاحه وأوصاه أن يأخذ بالتزمت والوقار فى سمته ، فقال له ما معناه « ويحك ! هبنى وترا مشدودا ، أترى الوتر يشد فى كل حين ؟» واجترأ عليه بعض زملائه لما عرفوه من ماضيه ، وما أنسوه من حاضره . فدعاهم يوما إلى مأدبة ، وجعلهم يغسلون أرجلهم فى طست من الذهب ، ثم دعاهم بعدها إلى مجلس أقام فى صدره تمثال إله ، فركعوا له حين وقعت أعينهم عليه ، فلما نهضوا قال لهم : « أرأيتم هذا التمثال ؟ إنه الطست

الذى غسلتم فيه أرجلكم بالأمس: صيغ اليوم إلهاً ، فوجب له الخشوع والركوع؟ »

وكان حليفه « بوليكرات » ملك ساموس سعيدا فى مساعيه ، ظافرا بمآربه ، لا يهم بشىء إلا تم على ما يرام ، فرووا أن أحمس كتب إليه يحذره مغبة هـذه السعادة ، ويشفق عليه من حسد الأرباب ، ويوصيه أن يحرم نفسه بيديه من أعز شىء لديه ، قبل أن تجرعه الأرباب بيديها مرارة الحرمان ، ورووا أن بوليكرات استمع لنصحه ، فقذف إلى اليم بخاتم نفيس فى أصبعه كان يغالى بقدره ، ويضن به على الضياع ، فما هى إلا أيام حتى عاد إليه الخاتم فى جوف حوت ! ! فنما الخبر إلى أحمس فتشاءم من صداقة بوليكرات ، وعلم أنه لا محالة منكوب ، وأن الدنيا لا توانيه بهذه السعادة إلا وهى تضمر له أفجع العواقب ، وقيل : إنه أشفق أن يلحق به طائف من عقابيل هذه السعادة ، فجر إشفاقه هذا إلى انفصام العلاقة بين الملكين ، وتحول بوليكرات إلى جانب قمبيز .

هذا طرف من أقاصيص أحمس ، وهـذه مسحة من شخصيته الظريفة ، فانظر ماذا صنع به شوقى جزاه الله ؟ صنع بذكراه مثل ما صنع قمبيز بجثته . . . فراح مظلوما بين خيال قمبيز القديم ، وخيال قمبيز الجديد ! ! وجزم صاحبنا بقتله لـ « وهاب رع » ، ثم قال شارح الرواية فى ختامها : إنه نادى بنفسه ملكا على مصر فى أثناء ثورة عسكرية فى ليبيا ، وعاد بعد ذلك إلى مقر الملك فأنزل إبرياس أى (وهاب رع) عن عرشه ، وقتله ، ثم استوى على عرش مصر ! ! »

أرأيت ؟ هكذا قال تاريخ شوقى وتاريخ شارحه اللبيب ، أما تاريخ الناس فيقول : إن أحمس أشرك وهاب رع فى الملك ، بعد أن هزمه فى موقعة « ممفيس » لعلها « منوف » ، ثم بقيا معا يسوسان مصر ثلاث سنوات ، واقترن اسماهما معا فى بعض الآثار ، ومنها هيكل « تاحوتمى الثالث » فى العرابة المدفونة ، ومقبرة فى « صا » ومعبد فى منف ، وختم نقش اسماهما عليه مقترنين .

ونص اللوح الذى فيه نعى « وهاب رع » على أنه خرج من القصر بـ « صا » فى شهر بئونة ، من العام الثالث لحكمه مع أحمس ، ثم ذهب إلى حيث جمع الإغريق ، وتصدى بهم لحرب صاحبه فهزمه هذا ، ثم كانت الوقعة الفاصلة فى الثامن من هاتور ، فلما أحس الإغريق بالهزيمة ، وتغرير فرعون « وهاب رع » بهم — قتلوه ، وأخذه أحمس ودفنه فى مقبرة آبائه . أما « هيرودوت » فقد روى أن المصريين هم الذين طلبوه من أحمس ، حين عنا هذا عنه وأبتاه ، وذكر أنهم تذمروا لمساحته إياه ؛

بعد ما خانهم مرارا وجشمهم كل ذلك العناء ، فأخذوه وشنقوه ، وعاد أحمس فدفن جثته فى مقبرة آبائه برعاية وإكرام .

فعلى الروايتين لم يكن أحمس قاتل « وهاب رع » بعد الوقعة الأولى ولا بعد الوقعة الأخـــيرة ، فمن أين جاء شوقى وشارحه بذلك التخليط ؟ ألم يكن تصحيح الوقائع أنق لتاريخ مصر ، وأدنى إلى تصور الموقف الذى صمدت له « نتيتاس » ، فأقدمت فيه على التضحية ، وأبت أن تكاشف قمبيز بحقيقة نسبها ؟

لقد كان ذاك أنق وأدنى إلى المعقول ، ولهذا ـــ على ما نظن ـــ تجاوزه شوقى إلى ما هو أزرى وأبعد من المعقول ! ! وهكذا انتظر الناس من الرجل أن يكسو عصر روايته وأبطالها خيالا ، فجاء هو ـــ ستره الله ـــ فجردهم جميعا من الخيال !

هكذا كان خيال شوقى فيما يسعده فيه المؤرخون ، فللقارىء أن يتصور كيف تكون المواقف والشخوص التى يعول فى وصفها على خيـــاله وحسب ، أو على ابتكاره الذى لا معول فيه على مصادر التاريخ ؟ ونظن أن القارىء نفسه ليحتاج إلى خيال واسع لكى يتصور هذه المناقضة النادرة المثال : مناقضة شاعر يسمى « أمير الشعراء » ولا يكون عنده قسط من الخيال ، ولا نصيب من القدرة المبتكرة يعينه على وصف موقف واحد ، أو شخص واحد ـــ وصفا يخلو من الإحالة والشطط والصبيانية والتهافت . فمن معجزات الخيال أن يتصور الإنسان وجود شاعر كهذا فوق الأرض وتحت السماء . وما كان من سبيل إلى هذا التصور لولا أن شوقيا موجود يرى بالعين ولا يطول فيه جهد الخيال .

إحالته فى خياله

(و) وإلى القارىء بعض تلك الأوصاف الخيالية التى أحال فيها شوقى جهد الإحالة ، ولم يقف فيها عند حد العجز عن تصوير الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى مسخها . والإتيان بضدها ، موفقا فى سخفه أى توفيق ، مطردا فى عوجه أغرب اطراد . فلو أنه ألهم الصواب كما ألهم الخطأ لكان شاعر الأرض غير مدافع ، ونبى الوصف الصادق بلا نكران .

جاء وفد قمبيز إلى مصر يخطب ابنة فرعون . فقال أحدهم بعد أن جاس خلال البلد :

خطبنا إليهم أمس بنت مليكهم ... فما كان إلا الاحتقار جواب
و أشفق أهلوها وقالوا : حمامة ... دعاها إلى الوكر السحيق عقاب

فلم يعترض عليه أحد من صحبه . وسلموا جميعا أن احتقار خطبة قمبيز أمر

لا يستغرب ولا يكبر على المصريين ، وإشاعة ذائعة يعرفها من راح أو غدا في الطريق . وبينما هم في الحديث إذ يقول أحدهم :

أعلمتم ماذا يردد في القصـــــر ، وماذا يقال همسا ووحيا ؟

فإذا سألوه وأحاطوا به ليسمعوه — تبين أن هذا السر لا يخرج عن الكلام الذي أفضى إليهم به زميلهم الأول قبل لحظة فما راجعوه ولا استغربوه ، ولكنهم هنا يثورون بالقائل ، ويسخرون منه ، ويصخبون في الأمر صخب الذين فوجئوا بكبيرة الكبائر ، بل «بأكذوبة الأجيال» ... وهذا بعض ما دار بينهم من صخب على أثر سماعه :

الثاني : هازل أنت ؟

الأول : بل سمعت حديثاً إن يكن مفترى فماذا عليا؟

آخرا : إنه يهذي دعوه كاذب لا تسمعوه
ما الذي زخرف ؟

الثالث : ألقى كذبة الأجيال فوه
يزعم الملكة نفريـــــت ابنة الملك أمازس
ترفض السير مع الوفـــــد إلى أقطار فارس

آخر : ما خطبه ما يدعي امض بنا لا نسمع

آخر : يقول فرعون مصرا لم يرض قميز صهرا

الثاني :

من أمازيس ؟ ما الأميرة ؟ ما مـــــصر؟ أفي الأرض من بقميز يهزا
أهذا خبر يروى غبي أنت والله
أتحت القبة الزرقا من يسخر بالشاه ؟

فهذان موقفان متناقضان جد التناقض في خبر واحد لا يستغرق إلقاؤه على المسرح من بدايته إلى نهايته أكثر من خمس دقائق ، وليس بعد هذا عجز في استقامة التصور وصدق التصوير .

ثم الوفد ما صفته وما حاله ؟ أضعف الناس إدراكا يستطيع أن يدرك أن وفد الخطبة لا يكون إلا من نخبة الحاشية ، وآل بيت الملك . ومن أم سوقة جبناء ؟ ضارعهم بين أقطاب الدولة ، فهم أرفع من أن يذهلهم الطعام عن عقولهم ، وتستخف الموائد أحلامهم ، وتطير بوقارهم ، وهم أشجع من أن تفزعهم

امراء ورجال دولة

رؤى الأطفال وتطغى على منامهم وساوس الصغار ، فأما فى الشجاعة فقد جعلهم شوقى جميعا يرقدون ، فما يقدرون على النوم من الفزع لرؤية التماسيح والثيران ، وأما فى خسة النفس على الطعام فهذا منظر يطلع فيه هؤلاء الوجوه الذين يقول فرعون لأحدهم :

أنت لا تجهل من أنـ ـظمة الديوان شيا

فإذا هم يفتنون بألوان الطعام المألوفة فتنة السوقة الجياع ، قد أنساهم الجوع التجمل ، وأذهلهم عن التصون ، فيصيح بعضهم :

فيروز ، أنظر ترى الخرافا حمرا لطافا على الخوان
ذا سمك النيل فى الأوانى كأنه معصم الغوانى
وأعين تاك فى جفون أم ذلك البط فى الجفان

ويتصايحون واحدا إثر الآخر بمثل هذا الفضول الذى لا يصدر من ذى مروءة فى داره وبين عشيرته ، فضلا عن دار الغربة وموقف الخطبة . وإن اضطراب الخيال ، والعجز فى التصور — ليبدو على أتمه حين تقرأ فى الفصل الثالث وصف ما يقدم على مائدة قبيز ، وما يراه الحاشية هنالك من ألوان الطعام ، فإذا هو أفخر من الخراف وسمك النيل والبط ، وإليكه كما جاء فى الرواية :

الوصيفة : كان العشاء ملكتى مائدة محملة
أكلت يا سيدتى من أرنب متبلة
ثم أكلت من حمل وحمل الفرس جمل

الملكة : ثم ؟
الوصيفة : جاءوا بالطير فى الأطباق
الملكة : طير من ؟
الوصيفة : طير فارس والعراق
الملكة : ثم ماذا ؟
الوصيفة : ثم جاءوا بالسمك فرأيت الملك فى الأكل انهمك
الملكة : ثم ماذا ؟
الوصيفة : لا أعد ما حضر من لحوم وبقول وخضر
ثم بالحلوى أتوا والفاكهة
الملكة : كيف كانت؟
الوصيفة : تشتهيها الآلهة

فهذه أصناف الطعام فى قصر فارس لا تقل عن مثيلاتها فى قصر فرعون ، بل تفوقها ، وهى من المطاعم التى تغرى الأميرة المصرية بالأكل كما قالت :

وقد يغريك بالأكل طهاة الفرس والشام

فما الذى أذهل الحاشية الفارسية إذن كل ذلك الذهول لولا أنها فاهة وسخف وتهافت فى التصور والخيال ؟

(ح) ويلحق بهذا التهافت أن ترجع إلى الحوار بين الملكة والوصيفة ، فترى أن الملكة هى السائلة عن أصناف الطعام والوصيفة هى المجيبة . . رجل البلاط يجهل تقاليد البلاط مع أن الملكة هى التى أكلت ولم تحضر معها الوصيفة ، بل كانت فى جانب الحجرة مختبئة . فما معنى هذا السؤال المعكوس لولا أنها أيضاً فاهة وسخف وتهافت فى التصور والخيال ؟

وأعجب من جميع هذا أن تسمع الوصيفة اسم « بردية » أخى الملك ، فتسأل : « من بردية ؟ » وقد كان ظننا أن شوقيا أقدر على تصور البلاط من هذا ، لأنه بيئة عاش فيها ورآها . ولا حاجة به إلى إجهاد الخيال فى تصورها ، فإن الحاشية مطبوعة على استطلاع الأسرار ، والنساء خاصة أشد استطلاعا لها وتنقيباً فى جحورها ، فلا نعرف حالة فى التخيل أغرب من وصيفة فى القصر لم تسمع باسم أخى الملك الذى كان زينة شباب عصره جمالا وفروسية وبأسا ، وكان شقيق قمبيز ، وأقرب الأقربين إليه . إنها إحالة شوقية ولا زيادة ! !

(ط) وقد شاء شوقى أن يجعل سفر « نتيتاس » ضرورة ألجأ إليها اتقاء الغارة الفارسية ، ولكنه مع هذا شاء ألا يجعلها ضرورة على الإطلاق !! تناقضه فى تعليل الفتح فقرر أن غارة فارس كانت أمراً مقدوراً لا مفر منه ، سواء أقبل أحمس تزويج بنته من قمبيز أم لم يقبل . عرف ذلك الوفد الفارسى ، فقال أحد رجاله قبل أن تبرح الأميرة المخطوبة أرض مصر :

« يهب عليها غدا عاصف من الفرس أنى تمشى حصد »

وقال آخر : غـــدا يصب عليهم قمبيز صوت عذابه

وقال آخر :

صدقت أخا الفرس قلت الصواب غدا يعصف الفرس أو بعد غد

وقالت نتيتاس نفسها قبل أن تبرح قصرها :

غدا تذرو رياح الفرس من موتاك ما تذرو

غدا يصبغ من شط لشـــط بالدم النهر
غدا يهتك عن أربا بك المحراب والستر

ونتيتاس هذه هى التى أيقنت قبل ذلك أنها حسمت الشر ، ودفعت الخطر ، فقالت ترد على نفريت :

أتيتنى شامتة ؟

نتيتاس : لا . بل أتيت مسعدة
آمون قد مد إليـــــك وإلى الوادى يده
وقد كفى مصر البلا ء والخطوب المرعدة
وكف عن ربوعنا نار المجوس الموقدة

فهل الفدية ضرورة لازبة أو غير ضرورة لازبة ؟ لا بد من إحدى الاثنتين ، أما الاثنتان معا فلا !!

ولما جاءت نتيتاس تلقى « أحمس » لتبلغه عزمها على السفر إلى بلاد الفرس مكان ابنته الآبية شاء شوقى أن يجعل الحديث بينهما سرا تخرج نفريت — ابنة أحمس — من الحجرة لكيلا تسمعه . . . . على أن هذا السر قد عرفته نفريت قبيل ذلك من نتيتاس نفسها ، حين قالت لها :

إحالته فى أمر نتيتاس

أتيت لمصلحة الآخرين وجئت لشأن جليل العظم
أتيت لأفدى بنفسى البلاد وأدفع عن مصر شر العجم
فإنك إن ترفضى يزحفوا كزحف الذئاب ، ونحن الغنم

(ل) وشبيه بهذا أن يطلع قمبيز على سر هذا التبديل ، فيغضب ، ويجعله سببا لغزوه مصر ، وإنذار زوجه المصرية بتخريب وطنها ؟ وإنه لفى الحجرة لم يفارقها ، إذ جاءه نبأ الرسل والجواسيس الذين بعثهم إلى مصر ، يستطلعون الطريق ، ويحكمون تدبير الغارة ، قبل أن يسمع بخبر التبديل بين العروسين . وقبل أن يغضب تلك الغضبة «البريئة»!! فهلا كان هنا بعض التصرف للتوفيق بين الأمرين ؟ !

إحالته فى أخبار قمبيز وأخلاقه

وإن قمبيز مرة لوحش يصف نفسه فيقول : « أنا وحش ! أناغول » وتصفه امرأته فتقول : «إنه نمر الفرس الخشن» وإنه لمرة أخرى وفى سياق الحديث نفسه .

ولا هو بالملك البربرى ولا الوحش ذى الناب والمخلب

ثم تكون زوجه هى التى تقول للوصيفة التى نفت عنه الوحشية :

« صدقت تتا » هو زين الشباب ، إله القنا ، قمر الغيهب

فهلا اتقى شوقى هذا التناقض أو تنبه إليه ؟

(ل) ونحسن الظن بشوقى قليلا ، فنحاسبه على الإحالات التى لا يحاسب عليها مثله ، ولا يسأل عنها إلا من هم أدق منه بديهة وأكيس منه خيالا ، وإن لم يكن التنبه إليها بالشىء الكثير . فقد قال بلسان فانيس يخاطب الأميرة نتيتاس ليقنعها بقبول غزوة قمبيز لبلادها مصر :

جهله فروق الأحوال بين الماضى والحاضر

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس لص لآلى

واللآلىء لم تكن مما يسرق فى منفيس ! ! لأنها لم تعرف فى مصر قبل عهد البطالسة (راجع كتاب المواد المصرية القديمة للأستاذ لوكاس) ولو أنها كانت معهودة شائعة فى منفيس على أيام أحمس لما جاز أن تخص بالذكر فى هذا المقام ، وإلا فهل لص الذهب أو الملابس أو الآنية مثلا لا يعاقب فى منفيس ؟ وهل لابد أن يسرق اللآلى حتى يعاقب ويرذل ويزدرى ؟ فالقافية هى التى جنت على شوقى ، فأوقعته فى الإحالة التاريخية ، والغثاثة المعنوية . ولو أنه قال :

دعيه يعاقب سارق التاج مثلما يعاقب فى منفيس سارق مال

لأصاب ولم يسف فى لفظه ، لأن كلمة المال تشمل كل ما يملك ويسرق ، ولأن مقابلة السارق فى الشطر الأول بالسارق فى الشطر الثانى أجمل من ذلك التعسف الذميم ، الذى يلام عليه حتى المبتدىء من النظامين .

وقال بلسان فرعون الأسير :

إن الجواهر فى التراب جواهر والأسد فى قفص الحديد أسود

ظن شوقى أن أقفاص حديقة الحيوان بالجيزة كانت مألوفة على هذا النمط منذ القدم ، وضرب ذلك المثل العقيم ، ولم يخطر له أنها فى مصر شىء حديث متأخر ، ولا استطاع أن يتخيل لحبس الأسود حالا غير هذه الحال التى يراها بعينيه ، وإنما كانت الأسود تحبس فى جب أو غار ، وكانت مع هذا تعبد حين تحبس ، فلا هوان إذن فى الحبس ولا نقصان ، ومتى انتفى الهوان فالمثل الذى ضربه شوقى لغو عقيم .

وكلم فرعون رئيس وفد فارس فقال له :

سيدى ، لو تقول لى كيف قمبيز والقدح

رعمسو الثاني يقاتل
ومعه أسده الأليف
(تصوير أوتو بول)

وهاب رمز

حس

ومن هو المتكلم ؟ هو فرعون الذى تأفف قبل ذلك من إفراط نتيتاس فى مجاملة الفرس ، وما زادت على الترحيب والاعتذار ، فمتى كان فرعون هذا يخاطب خادم ملك آخر بقوله « يا سيدى » فى عهد التأليه والتقديس ؟ ذلك خطاب يجوز سماعه الآن ولا يقاس عليه ، أما فى إبان الإلهية الفرعونية فما كان ليسمع ، وماهو بالخطاب الذى يخطر على بال مستقيم .

(م) على أن أضحوكة الأضاحيك حقا حديث حاشية قمبيز فى الموقف الذى مات فيه قمبيز ، ففى ذلك الموقف بخع الملك نفسه ، بعد أن جن وثار جنونه ، وقتل صحبه وبطانته ، وترك من حوله يتساءلون : متى يحين أجلهم يا ترى فى هذه المقتلة الجزاف ؟ فانظر كيف كان رجال الحاشية يتكلمون فى ذلك الموقف المرهوب قبيل انتحار مليكهم ، وهو بينهم هائج الضمير ، يذكر آثامه ويتخبط من الصراع والندامة .

أضحوكة الأضاحيك فى تخبط الخيال

رستم لحيدر : وأين منزل الضمـــير

حيدر : موضع من الجســـد

انظر . هنا ـ يارستم ـ الـ قلب ، وها هنا الكبد

وها هنا الضمير بيـــن القلب والكبد قعد

رستم : هنا الدجاج والحما م ها هنا بلا عدد

حيدر : والبط أيضا والأوز والحمار والوتد

وكل ما تسرق أو تخطف من هذا البلد

فهو بيمارستان ولا شك !! على رأسه ملك مجنون يهذى ، ومن حوله رهط مجانين يهذون !! والبركة فى خيال شوقى السقيم الذى يحن كل من مسه من العقلاء .

(ن) وقد يحسن أن نختم النقد بهذا الموقف الذى ختمت به الرواية ، فلعل الذين يترنمون بشعر شوقى من غوغاء الأدب يعلمون الآن ماذا ينقصه من أداة الشاعر المتخيل المبتكر ، فيعلمون منزلة الشعر الرفيع ، ويفقهون أنه مركب ليس بالسهل ، وصناعة لا تغنى فيها الطلاوة والنعومة فى الصياغة ، فهذه قدرة تكسب بالمرانة الطويلة ، ولا تعدو طبقة الملكات الآلية والصناعات اللفظية ، أما الشعر الرفيع فهو الخلق والابتكار والقدرة على تصور الحياة فى صورتها السليمة الكاملة بلا علاج ولا تشويه ، فالخيال الذى لا يرى ، أو لا يرى الأمور إلا على عكس ما ينبغى أن تكون عليه — آفة وعيب ، وليس بقدرة ورجحان .

الشعر وجلاله

(س) وقد أبى شوقى إلا أن يفرغ جميع نقائصه فى رواية قمبيز التى لم نشهد له رواية قبلها على مسرح التمثيل ، ففيها كل عيوب ذهنه وكل عيوب خلقه .

رواية تفضح عيوب ذهنه وخلقه

ودعنا من عيوبه التى تعنيه فلا شأن لنا بها فى هذا المقام ، وإنما نعتبر بما نراه فى الرواية من تقلب هذا الإنسان بين الناس ، وتمليقه للنقيض والنقيض ، فأما الشعب فهو يتملقه بما لا يضير ذوى النفوذ من دعاء وصخب ! وأما ذوو النفوذ فهو يتملقهم بما يسرهم ويريحهم حين يسمعون مثل قوله : « مولاى إن الوفد فى ارتياع . . . » .

أو مثل قوله وهو يتكلم عن وفد فارس . . :

فمن من الوفد برأ سه إلىّ يدفع ؟

ثم يقول : حوتيب ما من أحد هان عليه رأسه

أنظر إليهم ، كلهم عزت عليه نفسه

إلى غير ذلك من التعريضات التى يقابل بها صاحبنا كل وجه ، ويدور بها فى كل مدار ، وينوح بها فى كل مأتم ، ويرقص بها فى كل عرس . . . وهكذا تحار الدنيا كيف ترفع شوقياً بما يرتفع به الرجال . فيأبى هو إلا أن يكون حيث كان ، ويقر حيث طاب له القرار .

١٥ — شوقى بين يدى قمبيز

رواية شعرية « غير تمثيلية »

قمبيز لكاهنه سابور:

سابور من ذاك القزم ... فى جانب من الهرم
يظهر حينا ويرو ... غ روغان المتهم؟

سابور: مولاى هذا شاعر ... فى مصر يغتاب الأمم
يرجمها ويحتمى ... خلف الدهور فى أجم
أضعف من صاغ مديحا فى القصيد أو شتم
يرعى ذوى البأس ولا ... يرعى العهود والذمم
ما قال: « لا » قط، ولا ... يصدق إن قال: « نعم »
وناطق إذا جرى ... حديثه على القلم
لكنه فى صمته ... أبله، أو فيه بكم
وربما شاهدته ... فى حيث جال أو جثم
خالس حينا نظرة ... عجلى، وحينا اقتحم (١)
تطير عيناه ولو ... لبى هواه لهجم
قد عاهد الأقدار لا ... يكون يوماً ذا شمم
لو ارتقى العرش ارتقا ... ه وهو فى زى الخدم

قمبيز: يا عجبا لأمره ... ألا تراه من أمم؟

الكاهن: مولاى دعه، إنه ... يثلبنا فيما نظم

---

(١) إن وصف الأستاذ العناد الذى أنطق به الكاهن هنا لينطبق كل الانطباق على شخصية شوقى رحمه الله كما وصفه راءوه، فقد كان يخشى كل سلطان ويتملقه، ولا يريح سائله عما لا يقدر عليه بعجزه عنه، ولا يبين إلا بالقلم، فإذا جلس فى مجلس موقر لم يفتح الله عليه بكلمة فى معضلة أو شبه معضلة، بل اكتفى بالابتسام أو الإيماء أو نحوه، فراراً من التبعات، وباختلاس النظرات جبنا عن مواجهة العيون، وكان دائما مسوقا ولم يكن سائقا فى جده وهزله على السواء ولله.

قمبيز : وما يقول ويحه ؟

الكاهن : يقول ... بئس ما زعم

يقول : مولاى طغى . يقول : مولاى ظلم

لا بل يقول كذبا ينقضه فيما رجم

كأنما ينعت مسخاً شائها ذاك القزم

قمبيز : يا ويله جئنى به أشفيه من داء البكم

جئنى به إن جسدا حياً يرى ، وإن عدم

ألا تطيقها ؟

الكاهن : بلى ! أطيقها ولا جرم

الكاهن مستمرا مزمزما :

يا أهرمان (١) هاته أخرجه من بين الظلم

يا أهرمان (٢) جره من رأسه أو القدم

يا أهرمان ، ألوحى (٣) لن تخلف الوعد ولم

ما أنت عنه عاجز كلا ! وإن طال القدم

(شوى بين يدى قمبيز)

قمبيز متهكما : ها .. أنت جئت عندنا ؟! يا مرحبا .. أهل الكرم !

شوقى : لبيك مولاى ..

قمبيز : أجل لبيك أنت يا قزم

يا مسخ ما غرك بى ؟ حسبتنى من الرمم ؟ !

مسخ أنا تزعمنى ؟ انطق . تكلم يا صنم ! !

شوقى : أنا ؟ !

قمبيز : نعم ! ومن إذن ؟

شوقى : بل ذاك خصم قد نقم

---

(١) انظر ماقلنا فى الهامش ١ ص ١٢٤ من هذه المختارات .

(٢) أهرمان هو إله النور والظلام فى ديانة زرادشت نبى الفرس القديم .

(٣) الوحى بفتح الحاء أى السرعة وهى كلمة ينطق بها السحرة لاستعجال الشياطين (هذان الهامشان والهوامش اللغوية إلى ص ٥٦ عن الأصل) .

أنا مدحت سيدى وقلت : خير من حكم
وقلت : خير من رمى وقلت : خير من صدم
كم من مدينة حمى وفى ميادين هزم
لا جور فيه إن أصا ب أو أثاب أو حرم
دعنى أذهب وأجىء بما رقمت

قمبيز : لا ترم (١)
لتقضين ها هنا

الكاهن : على اللظى أو الوضم (٢)
ألم تلفق قصة سميتها باسم « العلم »
فيها تقول ما تقو ل من هراء وتهم ؟

شوقى : حاشاى ! لم أنظم ، ولا كان لسانى إن نظم
كلا ! وحق النار والنور ، وحق ذا الحرم
لكنه العقاد سو اها . . ومثله اجترم
ألف « قمبيز » ، وألـ قاها على ، و اعتصم
أحلف كل حلفة ! أقسم أحرج القسم !

قمبيز : كيف ترى سابور فى هذا المحال والوهم ؟ (٣)
أهازل صاحبنا ؟ أم مسه بعض اللمم (٤)

الكاهن : مولاى تلك شيمة فيه

قمبيز : و بئست الشيم

: انهلكه إذن !

الكاهن : أمرك فيه . لا سلم

شوقى : يارجل الدين أغثنى ، لا طغت بك القسم

: كن شافعا ، كن حكما ، أنت الشفيع و الحكم
ولا تزده غضبا حسبى من الخطب الندم

---

(١) رام المكان يرمه أى برحه (٢) الوضم خشبة يكسر عليها العظم ويقطع اللحم
(٣) الوهم بفتح الهاء الغلط فى التقدير والحساب (٤) الجنون الخفيف

أنا تمدحت سيدى وما جحدته العظم
أنا هدمت بيدى من مصر فوق ما هدم
أنا سلبت أهلها خيم (١) الرجال والهمم
رميتهم بالجبن والـــــوهن وبالجهـل العمم
وبالفجـــــــور تارة وبالغـــرور والوخم
وقلت : كل ما رق يخون مصر لم يلم
وقلت : أنتم الذئا ب ، وبنو مصر الغنم
فـكيف لا ترحمنى وأنت أولى من رحم ؟
هذه ضلوعى كاللظى هذى دموعى كالديم (٢)
الرأفة الرأفة بى من يربح الحمد اغتنم

الكاهن : حمدك أنت مغنم ؟ ! طوبى إذن لمن يذم كنى . .

شوقى : . . أجرنى !

الكاهن : لا مجـــــير اليوم من موت حتم

قبيز : لا بل تشفع للخبـــــيث واتسم بما وسم
أضحكتنا وقد بكى وسرنا وما ابتسم
فاختر له منية يحمدها إذا انصرم

شوقى : منية ؟ ! يا ويلتا ه .. ما عفا ، ولا عزم
خلتك تعفو سيدى والعفو أحلى وأتم
وما انتفاعى بالشفا عات إذا الموت دهم

قبيز : كيف ؟ أهكذا نرى جهل الحكيم بالحكم ؟
كم صور للموت أشـــــهى من شهيات النعم
بين حامين كما بين شقاء وسقم
فاختر

شوقى : .. أنا أختار ؟

---

(١) الخيم بكسر الخاء الطبيعة أو السجية
(٢) جمع ديمة وهى المطر الدائم (وكلها عن الأصل)

الكاهن : هل تأذن لى ؟

قبيز : نعم نعم
شأن الخبيث هين كله إلى بعض الحشم
هم بمنايا مثله أولى ، وأدرى بالقيم
نلهو بما اختاروا ، ولا يمسنا منه وصم (١)

قبيز : هذا مليح ، فادع — يا حاجب — منهم من رسم (٢)

(الحشم يدخلون)

قبيز مستمرا : يا حشم القصر انظروا إليه من حيث نجم
هذا سليط يتحى بالشعر شاهات العجم
فاقترحوا فيه المنا يا ، واسألوا فيه النقم
صفوا له مائدة لا يتخطاها الوخم
يحرق ؟ أم يغرق ؟ أم يرمى به ؟ أم يصطلم (٣)

شوقى : يا حربا !

أحد الحشم : يا عجبا !

ثان : ماذا جنى ؟

ثالث : كيف غشم (٤)

أحدهم : نسل منه مقولا فاه به ، وما احترم
يخرس عن أمثالها

الكاهن : لا خرس ولا صمم
لسانه أشقى به وهو به أشقى النسم (٥)

ثان : النار !

شوقى : تغذوها بجسم من هنات وهرم
يا سوء ما امترت لها من الطعوم والطعم .

الكاهن : لا تحملن همها يكفيك همك الأهم ! !

الثالث : نلقى به حيا لعقبان الهواء والرخم

---

(١) الوصم الوبء بفتح الصاد المرض . (٢) رسم إليه حضر إليه مسرعا
(٣) اصطلمه قطعه من أصله . (٤) خبط فى الطريق بغير معرفة
(٥) جمع نسمة : وهى النفس (والهوامش كلها هنا عن الأصل)

رابع : نسلخ جلد وجهه نفرى عن الجسم الأدم (١)
الكاهن : ما للأديب يلتوى ما للأريب قد لطم
خامس : هبه لوحش لقمة سائغة من اللقم
شوقى : بل ترحم الوحش فما فىَّ شفاء من قرم (٢)
سادس : إن شاء مولاى فنى الـــــخازوق تكفير الأثم
شوقى : وكيف بالخازوق فى غير عناء وألم (٣)
الكاهن : أما كفاه سيدى مات ولما يخترم (٤)
ما واقع النار وقد حال إلى لون الحمم (٥)
وما علته ضربة وفيه قد دب الورم !
قبيز : لا بل كفانا ضحكا منه ، وترفيه سأم (٦)
فانفض رقاك واعده وعد بنا إلى الرجم (٧)
شوقى متنبها : ما هذه الأشباح ؟ ما هذى الرؤى ؟ ماذا ألم ؟
عينى طال نومها ؟ أم هى يقظى لم تنم ؟
التوبة التوبة ! لا عرضت حتى للرمم
الرهبة الرهبة إن باح لسانى أو كتم
حذار سحر فارس وسحر سائر الأمم
إن السعيد حازم أبداً حزما وختم

---

(١) فرى قطع ، والأدم الجلد (٢) القرم شهوة اللحم
(٣) انظر الفقرة ز ص . ٣ هنا (٤) اخترمه الموت قضى عليه
(٥) الحمم جمع حمة وهى كل ما احترق بالنار
(٦) الرقى جمع رقية وهى قوة السحر ووسيلته ، والرجم القبر
(٧) يقض عليه (والهوامش اللغوية كلها من ص ١٥٢ حتى هنا عن الأصل)